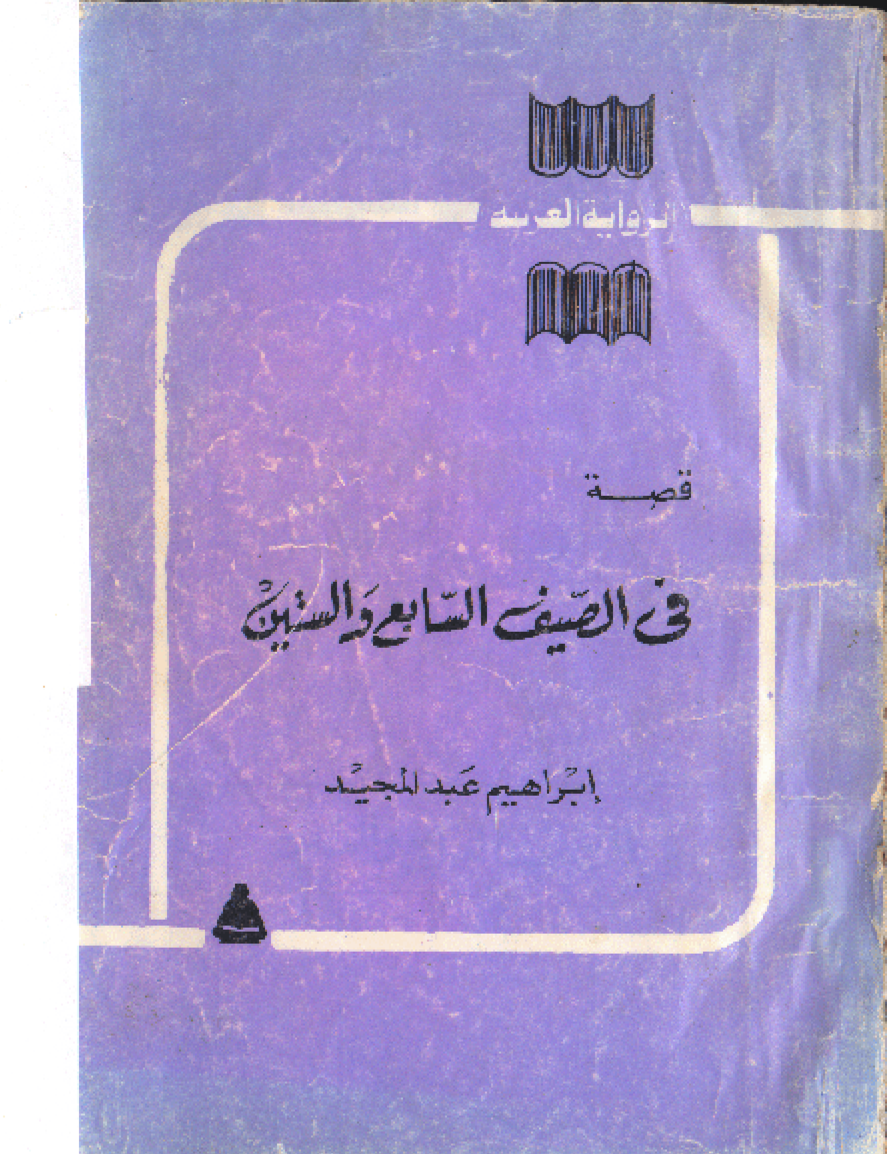
منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb



منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb



فى الصيف السابع والستين

● الطبعة الثانية

الاخراج الفنى : ماجده البنا

فى الصّيف السّابع والسّتين

تأليف

إبراهيم عبدالمجيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

● الإهـــــداء

الى الذين عاشـوا ذلك الصيف

الذى لم ينته !!

ابراهيم عبد المجيد

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

اليــوم الســادس

من الشهر السادس

- ١ -

« هذه الوجوه الشاحبة ، المنقبضة ، التى انقلبت عيونهـا الى الداخل ، تزيدنى اسى . ان وجهى لاشـك مثلها ، ولا ريب انهم يقولون عنه ما اقوله عن وجوههم . لكن هـل تعرف بعض هذه الوجوه انى اشـك فى ملكية اصحابها لها ؟ ربما .. حينئذ تصبح لعبـة كبيرة نشترك فيهـا جميعا .. مهزلة تسربلت فى مأساة ! » .

الراديو موسيقى عسكرية .. مارشات متوالية .. نكست الرؤوس .. حاصرت العيون الراديو من جميع الجهـات .. تود لو اخترقته .. لو استولت على ما سيقول قبل ان يلفظه ! ..

ـ آه ..

لمـاذا يريد ان يبكى منذ مساء امس ؟

لمـاذا لم يعد يرى ما حوله جيدا ويحس به ؟

لا يدرك انه جالس فى الفناء ، انه جالس وكفى !

لا يعى ان خلفه مبنى المركز . ان داخل المبنى حجرات . أن هذه الحجرات تكون فى الصباح فصولا دراسية للطلبة . ان السور المحيط يفصـل المركز عن الشارع والمنازل فى الخارج .. أن على يساره ورش المركز .. ثم ما هو المركز نفسه ؟ وأين ؟ .

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

يتحرك ، يتكلم ، ولاشيء مما حوله يشغله .. يشغله فقط انه يريد أن يبكى منذ مساء أمس ! منذ أن صرخ أنور .

« أين الطيران ؟ » ..

كان السؤال حدث من الماضى نسوه .. تراث تركه الأجداد وغفلوا عنه .. ولما ظهر بهم انهاروا بين أن يستوعبوه أو ينكرونه .. داخلهم احساس قوى أن يصدقوا الدهشة فى السؤال . ان يلغوا التساؤل ويصدقوا الدهشة والاستنكار والفجيعة .. تعلقوا به ، بميراث السنين الطويلة من الرغبة فى ان يفعلوا شيئا . بخوف ضارب فى وجدانات مسحوقة ، يتحول فجأة الى أذرع لهفة تطاول الجبال . بأمل ساذج لقلوب صغيرة .. لكن أحدا لم يزد ! .

تحركت الأحداق .. التهمت كل الاتجاهات .. حنقا طفرت القلوب وأسفا بعضها .. لكل أحدا لم يرد !

« أين الطيران ؟ . أين الطيران ؟؟ »

تلوت الصرخة سكينا حلزونية الحركة فى احشاء مرهقة .. لماذا لا يرد أحد ؟ .... هل هو ذكى الى هذا الحد ؟ . هكذا دأبه .. الصبر اسطورة قديمة يسحقها بحذاء موضوعيته ! . الشك ! الشك . يريد أن يرى كل شيء دفعة واحدة .. والا ماما كان يعنى التطرف والعنف فى معسكرات الشباب ..

« ـ واقول لكم ثورتكم هذه نصف . بل ربع .. الشوارع لابد تعرف الدماء .. حقى ويدى .. التطبيق الاشتراكى يسير متنزها .. عجيبة هذه الاشتراكية ، مسخا صرتم والفقر قائم .. لن تثمر الخطة .. ثورة بيضاء .... لهم وعليهم .. »

« ـ أنت يا صديقى تتباهى فقط بكتبك الحمراء ..

سيرك جوار الخبراء السوفييت .. سيرتك معروفة . انحرافاتك لها دخان . لماذا لا تعبر عن رأيك داخل الخيمة ! ؟ »

« ـ المخابرات فى كل مكان . قد يكون الموجه نفسه منهم » .

نشوة النصر ما تزال تستطيع أن تتخايل على سحناتهم رغم هذا الترقب القلق .. امتلأت أرواحهم الى غايتها بأن النصر سهل ميسور .. الأمر لا يعدو نزهة .. لكن سكين السؤال الملعونة جهنمية الاثارة .. عيونهم تزداد اتساعا .. دهشة .. غفلة .. ! تفصح بالأدانة على غباء أو حسن نية ، أو متسائلة يمضها التوجس .

لكن حقا .أين الطيران ؟

كيف غاب السؤال عنهم ؟

توقفت المارشات .. أناخ السكون على الكون .. جثمت الرهبة ..

« أيها المواطنون . جاءنا من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان التالى .. ارتفعت العيون تهتف بعضها .. بيان رقم (٣) رفت أهداب واغمضت أعين صادر فى الساعة السادسة من مساء الثلاثاء السادس من يونيو عام ١٩٦٧ انكفأت رؤوس فوق الصدور والتوت أعناق ناءت بحملها ان التدخل الجوى الواسع المدى من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لصالح العدو الاسرائيلى قد أحدث تطورات هامة فى خط سير المعركة وتقاتل قواتنا الآن فى معارك ضارية على الأرض المصرية وعيون تغمض وأخرى ترتفع الى السماء تبحث أو تستقطر العذاب ويشيع الأسف والغضب والخذلان وتتحرك بعض الأقدام عن الأرض قليلا

وتتشابك اصـابع الأكف وتتكور بعض الأيدى وتعض النواجذ على بعض الشفاة وتقف فى بسالة رائعة امام هجمات يشنها العدو على مواقع العريش ابو عجيلة والقسيمة ويضع العدو الآن فى المعركة قوة جوية ضخمة أين الطيران سـؤال يحط فوق الجميع وتزداد الحركة توترا وبرغم ما منى به من خسـائر فادحـة فى الطائرات والدبابات فان الذين يقفون وراءه يواصـلون امداده بما يعوض خسائره » .

« صقر » طرقة غضب على سـطح المذيـاع وبصقة غل فى الهـواء ..

وجوم على وجه صايغ ..

محسن عيناه لهثتا فى البحث فاصطدمتا بوجه علام ..

علام طويلا وجهـد يمتد الى الأمام . شماتة له عينـان وسخرية ، ابتسامته التى تحاول الانبثاق . عينا محسن صـدمة كهربائية لعينى الشماته .. الجو حول ابتسامة السخرية مكهرب مشحون بالتوتر ، لكن الرغبـة قوية تساعد الابتسامة أن تتخايل ولو قليـلا . ينهـار فاصـل الليـل والنهار .. يختلط الزمن ويتضاءل .. يصير صغيرا للغاية . ويوم الأمس كيوم اليوم .. الضيق نفس الضيق وانور ما يزال صامتا . بالأمس قال والضيق يفجره ..

ـ هذا هو البيان الأخير حتى الآن .. الساعة الآن الخامسة والربع .. تم ضرب العدو الذى يهاجم قواتنا فى ابو عجيلة ! .

كان يود لو كان كلامه مكتوبا لتظهر علامة التعجب . وقـال علام :

ـ وقبله فى البيان رقم (١٢) جاء أن العدو قام بمحـاولة

الهجوم على قواتنا فى الكونتيلا فحطمت قواتنا مدرعاته وأسلحته واجبرته على الانسحاب ..

وتحداه صقر ببراءة الأطفال

وماذا فى الأمر . انها بيانات مشرفة حتى الآن . ؟

ولكن أنور وجد وسيلة فى ان يثقب عيونهم بعلامة التعجب ، دون حاجة لأوراقه فاحتد ..

ـ البيان الأول يقول ان اسرائيل بدأت عدوانها فى الساعة التاسعة من الصباح بغارات جوية على القاهرة وجميع أنحـاء الجمهورية . ويقول ايضا ان طائراتنا تصـدت لها ومعها أسلحتنا المضادة للطـائرات .. ومنذ الصباح لم نسمع عن هجوم للطائرات المصرية على القوات الاسرائيلية اذن أين الطيران ؟ . أين الطيران ؟.

من نبرة التساؤل سمع محسن ترجيعة بالسؤال المعهود « اين الله » ؟ .

لكن خادعا كان هدوءه وهو يتـكلم .. أحس هو نفسه ، محسن نفسه ، بذلك وهو يقول بخدعة الهدوء :

ـ حقا .. اين الطيران ؟ لكن لعل فى الأمر تخطيطا ما . نحن مازلنا فى بداية المعركة وللأسف نحن لا نملك الا أن نقول ذلك . اما الآن فعلينا أن نستعد للتوزيع على مواقع الدفـاع المـدنى .

وسيقول ذلك الآن . لكنهم لا يستطيعون التحرك من حول الراديو .. حقيقة او زيفا ، المهم انهم لا يستطيعون .

اطفأه صقر بعنف .. اشعله صايغ بهدوء !

اطفأه محسن بهدوء .. اشعله علام بعنف !

أطفأه خليل بغضب .. اشعله أنور ببرود !

— هل تتحول المعركة ضدنا ؟

تساءل صقر وفى عينيه رهبة طفل وجد نفسه فجأة فى مكان متسع خال .

— اذا كان هذا التدخل صحيحا فهى للأسف تتحول ضدنا ان لم يتحرك العرب ويتدخل السوفييت ..

قال محسن ذلك بجياد او محاولة . لكن وفا انهزم وهو يتساءل ..

— وأين الأمم المتحدة ؟

اتسعت ابتسامة علام وقال :

— عيبك انك تتناول الأمور بجد وحسن نية ..

وكان خليل قد وقف أمامهم محملا بالانكسار .. تطلعوا نحوه كأنما يتعلقون به او يشدونه . اهتزت أقدامه .. شدهت عيناه . رفع رأسه .. قفز العرق فوق وجهه الذى يتقلص فى ألم .. هتف أنور ساخرا :

— هل ستخطب ؟

ضحك علام وجلجلت ضحكته . وكان بصر خليل يدور فى الفضاء .. اختفى سور الفناء من حول المركز .. امحت الورش والفصول الدراسية .. لم تعد المنازل العالية خارج السور قائمة .. ولا أسلاك الكهرباء المرتفعة .. السماء صفحة زرقاء رائعة .. الفضاء خلاء أبيض رائق .. ولأن الساعة كانت تدور فى السابعة فقد شعر كما لو أن أشعة الشمس التى بدات تورس الأفق خلفه قد امتدت بحيث شملت الأفق الشرقى امامه تطرد

الليل . جهة واحدة صار الغروب والشروق .. لحظة واحدة موعدهما .. العالم كله هو هذه الجهة .. الزمان كله هو هذه اللحظة . ما ابهى العالم وما أعمق الزمن . ها هو يقف على باب الولوج الى قلب الكون . وفى الكون لحظة تتسع فيها الروح له . وها هى هذه اللحظة الطلية . فالله يتمدد فى الكون الآن .. وهو هو .. هو هما .. هما هو .. هو واحد لا ثلاثة . ويتمتم خليل فى ألم ..

— الله قريب يا أخوان .

— اطلع له .. !

يهتف أنور وخليل لا يسمعه .. يقهقه علام وخليل لا يسمعه .. لم يعد له رفاق حوله .. لا حاجة له بهم الآن .. كلماته هذه آخر عهده بهم . رفع يديه الى أذنيه .. ايادى تمتد اليه مشعة من قلب الفضاء السرمدى . الله اكبر .. ركع فسجد .. الله اكبر .. يدعو بصوت مسموع مكتو .. بألم عيون تنظر اليه .. بحسرة .. بسخرية .. وفى الوقت الذى قام فيه صقر ووفا ليصليا جواره ظل هو ذاهلا عنهما .. ظل أنور وعلام يضحكان .. ضحكة علام أعلى .. ومحسن طاش منه صوابه . يتأمل المشهد ويسأل نفسه عن المسرح والحياة والمأساة والمهزلة والحدود ... !

- ٢ -

الليل يدور فى المنتصف ، والزمن المعاكس يزحف الى اليوم الثالث فى الحرب فيصل بالأدواح الى الأجفان ، والهدوء واد للقبور . لم يكن بحجرة الدفاع المدنى الرئيسية بمركز التدريب غير محسن وراضي والدسوقي ويحى .

كان بقية الزملاء قد تفرقوا الى مواقعهم فى المنطقة الواقعة ما بين الادارة العامة والمركز . منطقة طويلة يقع فى منتصفها جراج واسع يشكل الموقع الثانى بعد المركز وقبل الادارة بالنسبة لهذه الفصيلة من فصائل الدفاع المدنى بالشركة . جعل راضي يدير مؤشر الراديو الى الاذاعات الأجنبية . ومحسن يحملق فى سقف الغرفة مرة ويسبل عينيه مرات والنوم الأحمق يهزم قوته التى كادت تتسرب منه . لقد كاد النقاش يتطور الى شجار قبل التوزيع على المناطق مباشرة لولا ان حسمه راضي وقال :

ـ نحن لا نفهم فى الحرب ، لن نستطيع اصلاح شىء قد فسد الآن . هذا اذا كان هناك شىء فسد فعلا ..

ولكن يحى الصامت دائما علق وقال :

ـ والله اننى اعتقد ان كل هذه خطط للتمويه تقوم بها

القيادة المصرية ، وغدا سنستمع عن تقدم الجيش المصرى يؤازره الطيران كاسحا الاسرائيليين .

وكأنما عبارته فتيل نارى كاد الجميع على أثره يشتجرون لولا أن سقط فوقهم قرف مفاجىء من أشياء مبهمة فانصرفوا الى مواقعهم .

ودخل الدسوقى الى الحجرة ، وكان قد غادرها منذ قليل ، وفى يديه براد شاى وثلاث أكواب وعلبة سجائر .. عندما رآه راضى انطلق ضاحكا ومندهشا .

ـ من أين لك هذا ! ؟

تنبه محسن فحاول أن يبدو يقظا . هتف الدسوقى معاتبا .

ـ رئيس وحدة الدفاع المدنى ونائم .. انت انتهيت .. شاى حتى تستيقظ ..

ـ من أين ؟

هكذا قال محسن بفتور :

ـ من البوفيه طبعا .

ـ بوفيه ! ؟

هكذا انزعج محسن .

ـ تحايلت على القفل حتى فتحته ، أخذت ما اريد ورتبت كل شىء فى مكانه .

لم يستطع محسن أن يمنع ابتسامة اعجاب وحب فى الوقت

الذى كان راضى مسترسلا فى الضحك ويحيى صامتا كتابوت .
واستمر الدسوقى .

— لو كنت اشتراكيا كما تدعى لأيدت هذا العمل !

تمايل راضى وهو يضحك بالمقعد حتى لامس الحائط .. لم يتحرك يحيى أو يبدى انفعالا ما . وضع رأسه بين كفيه واسند مرفقيه الى المكتب وجمد . وقال محسن وهو يدعك عينيه براحتيه ..

— اؤيدك فى سرقة الشاى ، ليس لأنى اشتراكى ولكن لأنى أكاد أنام ..

وهتف الدسوقى متخابثا .

— اذن لا تؤيدنى فى سرقة السجائر .. ! ؟

رد محسن على الفور ..

— عندما نقول الشاى نعنى السجائر ككل المصريين .. !

وضحك الثلاثة . وكانت لحظات سلخت نفسها من هم ما يحدث وما يسمعون . وجعل راضى يفرغ الشاى فى الأكواب بطريقة جعلت له صوتا مثيرا يداعب الحلوق . وتمادى فى طريقته حتى انه كان يرفع البراد بيده لمسافة تكاد تصل الى متر فوق الكوب . وود لو يسكب الشاى فوق راس يحيى علـه يأتى بشيء ..

اشعلت السجائر وسمعت أصوات رشفات الشاى دافئة حنون .. كاد دخان السجائر يملاء الحجرة التى بلا نوافذ ، واستطاعت سذاجة الدسوقى وطيبته ان تنشران فى الجو ستائر مرح .. كان محسن كلما تطلع الى جسده الضخم القصير ،

ووجهه الأسمر وصلعته الزيتية التى يحاول فاشلا ان يخفيها بقليل الشعر المتبقى ، وكلما تذكر الأزمات والمآزق التى يقع فيها الدسوقى دون أن يعرف موضوعها ولا أسبابها ويظل مبتسما ، يبتسم . آلاف مثل الدسوقى طيبون . يعيشون حسنى النية بكل شيء حولهم .. يؤمنون فى أعماقهم أن كل شيء زائل ويكتفون بالحزن المكتوم ولا يحزنون . هكذا كان يرى الدسوقى . وادار راضى المؤشر الى القاهرة ليسمع انباء الواحدة والنصف . بان الجهد على وجه محسن وفشلت محاولة الجد فى طرده . يريد أن ينتبه ليسمع البيانين الأخيرين جيدا .. كان الدسوقى مهتما للغاية أن يعرف أنباء سوريا والأردن . وسوريا على وجه التخصيص . وقام يحيى ليأخذ حصته فى النوم مبكرا فى البدروم. الدسوقى يعتقد أن سوريا والأردن اكبر مؤثر على اسرائيل « فهى بلاد تضرب فى العمق يا صاحبى » . ان هـذا يعرفه الجميع ، لكن الذى لا يعرفه احد غيره فهو أن الجندى السورى افضل جندى عربى !

« بيان رقم (٤) صادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية فى الساعة السابعة والثلث مساء يوم السادس من يونيو .. دخل الدعم الجوى العسكرى الأمريكى والبريطانى للعدو الاسرائيلى مرحلة جديدة بعد ظهر أمس . فقد قامت طائرات من طراز كانبيرا البريطانية وعليها علاماتها الرسمية بالاشتراك فى عمليات الضرب الجوى فوق مواقعنا فى سيناء وذلك يكشف بطريقة لم تعد تقبل الجدل تدخل القوى الاستعمارية السافر فى صراع المصير الذى يدور الآن على الأرض العربية » نسى الدسوقى انه هتف مرة سابقة فهتف محنقا من جديد !

— واين الروس ؟

لكن محسن اشار ان يسكت ..

« بيان رقم (٥) صادر فى الساعة ٧ر٣٥ مساء .. ثبت لدى السلطات العسكرية المختصة أن هناك اثنتين وثلاثين طائرة امريكية قامت اليوم من قاعدة هويلس بليبيا قاصدة اسرائيل » .

وطرق الدسوقى بعنف فوق المكتب فقفزت الأكواب الفارغة .

— لم يبق غير السنوسى !

اخفقت نواجز محسن ان تدفع دموعه ! . سقطت دمعة وصارت النواجذ تطحن بعضها . يداه تتكوران فى عصبية ظاهرة .. صوت المذيع الحزين يتلوى فى قلبه يدميه .. لقد سمع البيانين من قبل .. انه الآن ، الآن فقط ، يتأكد من معناهما الكبير .. ويتأكد انه لم يعد كما كان .. اخذت الهزيمة بنصفه على الأقل .. هل هى مؤامرة يشترك فيها العالم كله ويؤيده الله ؟ واحس بكل شىء موجها اليه بالأساس .. كما اذاعت أمس القوات المسلحة السورية .. وهتف الدسوقى ..

— ارفع الصوت .. سوريا تتقدم ..

« .. القوات السورية تشن هجوما بريا على اسرائيل وتتقدم فى الجليل الأعلى المدرعات وقوات المشاة المشتركة فى الهجوم ، وتشتبك فى معركة شمال سد الحولة . ولقد احتلت القوات السورية فى طريقها مستعمرة « كاريتون » شمال سد الحولة بعد سقوط مستعمرة « شعاريا شوف » — ساهما كان محسن بينما رأس الدسوقى يتمايل فى خيلاء يهتز لها كرشه وراضى يراقبهما معا — فى يدها قبل الظهر ثم دخلت معركة مميتة قرب كاريتون مع القوات الاسرائيلية التى تحاول مقاومة تقدمها فى داخل الأراضى المحتلة » .

نهض محسن ليغادر الحجرة مفتالا بينما ينساب خلفه صوت المذياع الذى تعلق به الدسوقى بكل كيانه قال له راضى وهو يراه ينهض :

— انت تتعب نفسك وكأنك المسئول .

اشار له الدسوقى بعصبية أن يسكت فابتسم راضى بين المرارة والدهشة .. وتخطى محسن باب المبنى الدراسى فوجد نفسه أمام الفناء الذى كانوا يجلسون فيه قبل التفوق على مواقع الدفاع المدنى .. اتجه الى وسط الفناء حيث مربع من النجيل متسع ورطب .. استلقى فوق ظهره .. صمم على أن يعد النجوم جميعا !

. . . .

كان الظلام من حوله يلف المنازل ويدثر الشوارع .. كتل البيوت المعتمة تبدو كما لو كانت صخورا شبحية .. اختفى القمر فى الليالى الأخيرة للشهر العربى بينما النجوم التى صمم على أن يحصيها بعيدة متباعدة ! أمواج من البلادة تتحرك داخله وتنبث تغلى .. ما قاله راضى .. آه لا فرق .. فالنجوم تصدقه .. النجوم .. أن يحصيها كأحمق مريض .. لا فرق .. عمله السياسى .. آه .. نمل يسرى فى راسه .. كتب وكتب قرأها .. نمل يهرى مخه .. صفحات دفاتر أيامه القادمة سوداء كليل حزيران هذا .. حلم الالتحاق بكلية الآداب .. حلم الفتوحات الفكرية والفنية فى زمن يضحك ويضحك .. من يملك مفتاح النور الآن ؟ .. ليل الحرب ثقيل يا أصدقاء .. كيف يكون العمر ابدا موقوتا يا أبناء آدم وكيف يمر التاريخ ؟ يدخل العرب فى وحدة او تدخل مصر فى حرب مع اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل يا زعيمنا فلا فرق .. أمريكا الصهيونية وروسيا المصرية ويضحك علام فلا فرق . يغتصب

الصهيونيون فلسطين ويقيمون دولة مقطوعة الجذور ويطردون أهلها .. يا لها من لعبة سخيفة .. أكان ضروريا ذلك كله حتى نرى صايغ بيننا ؟ حكمة التاريخ ام خطيئة الانسان ؟ . لا فرق .. تقوم قوات العاصفة بشن هجماتها على الكيبوتزات .. اليهود يتركون الكيبوتزات وينشدون القناة ! . اغراء ديلسيبس لاسماعيل واغراء صهيون ليهوذا ! .. لا فرق .. يكون فرقا للدفاع المدنى والانقاذ ويظل منذ بداية هذا الأسبوع لا يذهب الى منزله ولا يرى أهله واخوته ويموت تحت الرمل أبناء الشعب ولا فرق .. لا قيمة لشعرة معاوية .. ضرورة الهجرة او حرية البقاء .. لا فرق .. كل شيء مثل اى شيء .. النجوم بعيدة والليل عبد ثقيل تملك زمام المملكة فليسأل ، هل يوجد خطأ فى هذا العالم ؟ اين وكيف يمكن ادراكه ؟ راسه ام قدميه ؟ لا فرق .. التعب فيه جميعا .. حتى اذا قلب أيامه وسنينه فلا فرق بين مستوياتها ومنعطفاتها .. كانت معسكرات الشباب .. تنظيم الشباب .. وكان الجدل .. وكان العمل .. وكان الخداع .. كانت أرقى التقديرات .. الهلاك فى العمل بمكتب القسم والنشوة فى الهلاك .. الندوات الفكرية ومشروعات الخدمة والانتاج وحب العمال له وكره الرؤساء .. محور نقاش العمال كان والطلاب ومحل الاقتناع والحب حتى فى الخلاف .. كم تحدث واعترف باخطاء كثيرة لكنه لم يحجب الأمل ولم يتخل عن حب زعيمه . ان هذا الجيل كان على موعد مع القدر ! **« الاخطاء أيها الناس ليست من صميم الفكرة ! عشنا كثيرا لا نهلك مقدرات الوطن . عندما تعطينا هذه القدرات نصبح كالطفل الذى تعطيه سلاحا لابد يصيب نفسه .. لكن لابد أن تستمر فى تدريبه على الرماية »** ما فائدة السلاح الآن .. تمام لم يعد بعد .. فليضحك .. الا يضحك الزمن .. فليبك .. فليصمت .. لكنه

بالفعل صامت .. فليحطم اذن رأسه .. اننا نكون مجموعة من الشباب تؤمن بالمستقبل والوطن وبها نطمئن الى أن وجودها كقوة متحدة فى الفكر والعمل يحمى العمل نفسه من شطحات السادة بالادارة وغيرها .

لماذا يتبخر الايمان والبخر للماء فقط ؟ لا فرق .. فليطحن راسه ذنب الآباء الخونة والرسل .. **« انت ياولد يا بتاع الاشتراكية .. أنتم تأكلون فى المعسكرات ويشحنونكم بالاوهام »** .. لكنهم لا يواجهونه الآن .. هل تفرض المعركة نفسها على أفكارهم بالفعل .. المواجهة الآن أم غدا فلا فرق .. لا مواجهة بعد مواجهة ريح الشرق .. آه .. الغرب وراءها .. لا فرق ! مقتله هو سؤال أصداء البيانات الأخيرة .. ماذا سيحدث لو وقعت الواقعة ؟ يا لخدعة السؤال .. كيف تقع الواقعة وهى لا تكون واقعة الا بالوقوع ؟

نزيف الكلام ونمومس المعانى . هذا النجم قصير العمر . انه يتهاوى فى الفضاء القديم !

« أيها الأخوة .. انه نجم يحترق مثلنا تماما .. لكنه نجم » !

« أيها الأخوة .. ان ما حدث لم يكن شيئا جديدا على مصر ، ارادت مصر أن تدافع عن العروبة ولكن المؤامرة الاستعمارية كانت اكبر .. لكن أيضا لن يمر المعتدى دون عقاب » .

« أيها الأخوة » اننا نمر ....

نمر ! يمر . ! الممرات .. مثلا اسطورة المقاومة عام ١٩٥٦ . لماذا لم يجد كلمة غير مر يمر هذه فهى مريرة وهو مرير !

« ... بأيام عصيبة ومجيدة معا .. اليوم سنعرف كيف نقاوم العدو وهو فوق أرضنا .. عندما نخلق الانسان المقاتل نستطيع ان نطمئن على الكادر الاجتماعى والسياسى الذى يقود المجتمع » !

فلنسخر او نرقص او نبكى معا .. كادر كلمة مستوردة من قاموس البلشفية ! .. كادر كلمة فرنسية الأصل ظهرت مع ظهور السينما .. مستوردة .. سينما .. مستوردة .. بلشفية .. سينما ..

« أيها الأخوة المهم المعنى وليس الأصل ولا خيانة فى ذلك » ..

« ايها الأخوة كانت هناك خيانة من العرب عام ١٩٦٧ كما كانت من قبل ٤٨ .. ! »

« أيها السادة .. كان الله بعيدا عنا لاننا كنا بعيدين عنه والله لا يغير ما بقوم حتى ... »

« أيتها الجماهير العظيمة .. خدعنا السوفييت ورحنا ضحية لمؤامرة الدول الكبرى »

« أمريكا هى السبب ودول البترول العربى لأنها لم تستعمل سلاح النفط ! »

« الرجعية العربية ساهمت فى تخطيط المعركة ضدنا .. هربت الخطط الى العدو ، وأطالت حرب اليمن استنزافا لأموالنا وقوات جيشنا »

أيها الأخوة .. أيها المواطنون .. ايها السادة .. فليتحمل النجيل تقلباته ولتقو الأرض أمام ضربات يديه الهستيرية ..

البذرة الخبيثة خبيئة فى مكان خفى .. فلنفتش عنها معا .. فلنفتش .. ولتقو الأرض لتتحمل ضربات يديه ..

— محسن .. محسن .. محسن ..

انحنى راضى وهو يهزه .. أفاق محسن وجلس وقد بدا غارقا فى العرق .. تنبه الى المكان من حوله .. لماذا يذهب بعيدا هكذا .. الا يمكن أن تتطور الأمور الى أحسن .. قال راضى :

— الا ترى أن الجو هنا رطب ! ؟

— ....

— تنهض ؟

— .... هل سمعت جديدا ؟

— الراديو مع الدسوقى يبحث عن أخبار عن سوريا والمقاومة .. سوريا متقدمة جدا والمقاومة تضرب فى المؤخرة ..

— ماذا سنفعل ؟

افلت السؤال من محسن فأحرقه الأسف ..

— انا عن نفسى لا اهتم الا من أجلك .. الحقيقة كما تعرفها انى أعد نفسى منذ زمن للهجرة الى استراليا ..

— ....

— هذا رأيى منذ زمن بعيد .. أريد غربة حقيقية !

— هل تعتقد أن هذه البيانات صحيحة ؟ انا لا أكاد أفكر ..

قال راضى بهدوء مشيرا الى نافذة بعيدة يتسرب منها ضوء أحمر خافت لم تفلح الستائر فى اخفائه :

ـ انظر .. هـذا هو الصحيح .. ناس تحـارب وناس .... هيا ننهض .. الصـباح رباح .. ان شاء الله سـتكون كما قال يحيى خطة .. !! ..

نهض محسن وهو يبتسم لا يعرف ما اذا كان ذلك من يحيى أم راضى أم الخطة ! بعد أول خطوة فى اتجـاه الحجرة قـال :

ـ لقد نسـينا « تمـام » يا راضى ..

ـ الصباح رباح .. لابد ان ننام الآن ..

- ٣ -

ـ متى يطلع الصبح ؟

هكذا تساءل الجندى الواقف فى الخندق وهو يتنهد فى توتر ؛ فقال صايغ :

ـ هل انت قلق الى هذا الحد ؟

ـ اكاد أموت ..

وشملهما الصمت من جديد .. حرك الجندى بندقيته الى أعلى فبدأ كمن يستهدف شيئا لا يرى وقال :

ـ صعب أن تدور الحرب ولا يشترك فيها الجنود !

ـ قد يأتى العدو الى هنا ..

حملق فيه الجندى بدهشة .. كان وقوفهما معا فى خندق واحد يجعل رؤية كل منهما للآخر ميسورة .. قـال بارتياب :

ـ هل تعتقد انهم سيأتون ؟ لا أظن ذلك .

ثم سأل فجـأة وبسرعة ..

ـ اسمع . لمـاذا لا تحملون سلاحا ؟

– ننتظر رسولا .. أرسلنا زميلا ولم يأت بعد .

وكاد يسأله لماذا تصدق وتبدو غير مصدق لكن دهشته من نقلات الجندى انسته واغرقته فى تأمل الجندى نفسه .

– وهل تنتظر الحرب ؟

– مشكلتنا اننا لسنا من رجال الجيش ولا المقاومة الشعبية .. نحن رجال الدفاع المدنى ولا شأن لنا بالقتال هكذا قالوا .. قلنا اذن ارسلوا الينا اسلحة للدفاع عن النفس على الأقل ..

قالوا ان السلاح فى الطريق مع مندوب من فرق الأمن المركزى .. لم ننتظر وأرسلنا « تمام » وهو زميل لنا وركز الجندى عليه عينيه بسؤال .. وبعد ؟ ..

– لم يأت المندوب ولم يعد تمام ..

عينا الجندى تشيان بأنه ، وقد اختفى شعاع الدهشة والتساؤل منهما ، قد كون فكرة عن صايغ . فكرة مربكة ربما تعنى انه – أى صايغ – طفل لا يعرف شيئا ..

– فلسطينى يا استاذ صايغ ؟

« قفز الجندى بالحديث يا صايغ ، فقفز فوقك الهم وصعدت المهانة الى حلقك فلا تتضاءل .. »

وقدم له الجندى سيجارة .. ود صايغ لو قدم اليه هو سيجارة ..

أحس انه لو فعل ذلك لأهان الجندى كثيرا .. أحس ان حاجة الجندى لأن يأخذ هو ، صايغ سيجارة منه لها معنى

كبير ولو حدث العكس لأهان الجندى .. المهانة ، المهانة ، لماذا شعر الآن بالمهانة .. ود صايغ لو سأل الجندى .. لكن الجندى جذبه بهدوء الى أسفل الخندق .. الى الداخل قليلا حيث توجد مساحة متر مربع مسقوفة بالخرسانة . جلسا وجعلا يدخنان فى صمت .. جعل صايغ يتتبع نفثات الدخان خلال العتمة .. تذكر أن زملاءه خلف عربات الجراج ينتظرونه .. كان بحاجة لأن يبقى ولو قليلا مع هذا الجندى الذى تعارف عليه أمس .. أحبه ومال اليه بسرعة لا يعرف لماذا ؟ ربما لرقة ملامحه وصغر حجمه ، لغموض أفكاره ، لوضوحها ، لا يهم ذلك كله . المهم انه أصبح مهما بالنسبة اليه ، شيئا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه .. انتهيا من التدخين .. عادا يقفان وراساهما يطلان من الخندق .. الشركة ممتدة امامهما فى عمق البحر ، مترامية على الجانبين كثيرا .. ورشها كتل ضخمة من الصمت والظلام والخوف والأعباء الثقيلة .

– ما هذا المبنى ؟ اننى جديد هنا كما تعرف ؟

– مسبك .. وأمامه الحوض الجاف .

– يستخرجون منه السمك ؟

ابتسم صايغ .. وتذكر كيف انه عندما ترفع بوابة الحوض الحديدية يصبح هو والبحر شيئا واحدا . يصبح لسانا ممتدا من البحر .. وكيف بعد أن تدخل السفينة اليه وتوضع البوابة الضخمة من جديد ويتم سحب المياه المختزنة يظهر السمك الذى يتخاطفه العمال .. أى بحر من الظلمات هذا الحوض الآن .. أصبح فارغا من السفن احتمالا لأى طوارىء .. حكى للجندى عن ذلك .. وكيف ان منظر السمك وهو يحاول عبثا الهروب يثير الضحك .. وربما الأسى .. وكيف انه مع كل ضحكة

تنطلق تدرك أن فوزا بسمكة كبيرة قد تم وتعرف السمكة نفسها انها انتهت .. كيف تصبح معركة السمك ميئوسا منها وبعد انتشاله كله تبدأ معركة العمال حول التقسيم .

ـ مسكين هـذا السمك .. أنه يجد نفسه وحيدا .

اهتز صايغ بعنف .. احس ان جسده كله ينتفض .. انه يكاد يكره هـذا الجندى .. وابتسم الجندى وقال :

ويأخذه عمال الحوض .. دعنا من المعركة التى تحدث بينهم بعد ذلك . المهم . ما هذه الأبنية .. ؟

واشار الى اكثر من مبنى .. الى اكثر من كتلة مظلمة ثقيلة ..

أجاب صايغ مبديا عدم اكتراثه ..

ـ محطات للكهرباء والبخار والأكسجين ومساحات لتخزين الصاج حتى يدخل ورشة التشكيل .. الا يكفيك هذا ؟

وضحك صايغ فوجد الجندى مطرقا .. جاء صوته منكسرا خفيضا ..

ـ ما اكبرها من شركة .. فعلا ما أكبرها يا أستاذ صايغ ..

ـ ....

ـ هل يمكن أن يصلوا فعلا الى هنا ؟ . سمعت أن أول سفينة معدة للتدشين ..

ـ الحرب ....

ولم يكمل صايغ وسرح الجندى ببصره عبر الفضاء السحيق الظلمة . هل حقا ستهبط السفينة .. ؟

نكر صايغ بسؤال الجندى .. ! ..

الميناء فى حراسة كاملة .. المدمرات ولنشات الصواريخ ودوريات الديناميت ، والبوارج السوفيتية ايضا . أصوات فرقعات الديناميت مدراج صمت الليل .. يفكرون حين يسمعونها فى مئات الأسماك التى تطفو ميتة .. فى أخواتها ، آه ، فكر صايغ انهم لم يفكروا فى ذلك قط ، لم تتناول ذلك احاديثهم ، أخواتها من الأسماك التى بعد أن تفزع ما تلبث ان تعود بسرعة وتطفوا فى لمح البصر لتسحب ما قتل الى الأعماق .. تأكله .. لكنها لا تتركه لأعدائها من الطير .. !

الأعداء الذين ينقضون لا يجدون شيئا .. ماذا يحدث لو تم ذلك ؟ .. آلاف العمال .. آلات من السخط سيكونون بعد الهدوء .. لكن ما الفائدة ؟ وما الشركة أمام وطن كامل ضاع تحت اقدامهم ، واقدامنا من فضلك ، هكذا قال لنفسه .. هؤلاء على كل حال يستطيعون البناء من جديد .. انهم المصريون وكلمة مصر عندما تقال تعنى البناء والحمول الثقيلة .. الهم المخزون .. هنا أرض تعرف البناء .. جاذبة .. لا تعرف الخروج .. ولن يستطيع اليهود أن يأخذوا ثأرهم ويخرجوهم ! انهم هم الذين خرجوا .. خرجوا او أخرجوهم .. المهم ان المصريين لا يخرجون .. لكننا لم نخرج .. بئس الفعل فعل خرج يخرج ، طرد يطرد ، ضاق به الخندق وقال الجندى :

ـ ثلاثة حروب فى عشرين سنة ..

« مئات الحروب لو تعلم .. صغيرة ولكنها حروب كاملة .. وكل هـذه الحروب واحـدة .. ما افظعهـا من حرب مليئة بالحروب .. كل هجمة على مخيم حرب كاملة فى عينيه .. تستطيع أن تحصى أى أسرة فتعرف عند الحروب التى خاضتها .. وربما هذه هى المصيبة » .

— اى جنس هؤلاء يا اخى .. لماذا يتركهم الله ؟

هكذا قال الجندى ورفع بندقيته يصوبها الى الفضاء بحزم .. بتهديد غير مفهوم .. ودار حول نفسه ورفع البندقية أكثر بحيث صارت فى وضع رأسى تماما وبدا كمن يستعد وهو يصوب نحو هدف مجهول أن يتلقى خنجرا فى بطنه !

قال أبوه ، وكان بعد صغيرا :

« كنا نحب غزة ومن يأتون من غزة ولكن لم نكن نحب أن نرحل اليها بالبحر وتحت مطر المدافع » .

وعاش ابوه يكره البحر .. وعاشت امه تكره البحر . وكبر هو يكره البحر .. **« البحر موت ابتلع بنتنا العروس » .**

هكذا كانت تقول امه كلما ورد ذكر البحر فى حديث ولكنها كانت تقول أيضا **« الخروج فكرة لم نفكر فيها ، ها نحن فى غزة يأتون الينا بين الحين والحين .. لكنك رأيت بنفسك ما فعله بهم الشباب عام ١٩٥٦ » .**

هل دخلوا غزة الآن ؟ هل يرون البحر كما رآه هو ؟ كان صغيرا لكنه يذكر .. يذكر التدافع والهرج ويذكر آلاف العيون الهلعة .. ويسمع الصراخ والعويل ويقول لنفسه كلما كبر يوما بعد يوم متى تكف الريح القديمة عن الاصطخاب فى اذنيه .. ويذكر وجه أمه نارى الفزع .. ودموع ابيه الجافة ! .. ويذكر انه كاد ينسحق بين الأجساد على سطح خشبى قالوا انه سفينة وقالوا انه زورق ولكنه يذكر انه لم ير الا أجساد بشر تتداخل وتتبعج وتنتفض ويطاردها حتى رذاذ البحر .. انهم يسقطون جنود المظلات فى سيناء .. يهاجمون القسيمة والكونتيلا

وأبو عجيلة .. لم يذكر اسم غزة حتى الآن .. خطة هى فعلا تنسجها القيادة المصرية .. يا حكمة يحيى الخائبة !

— اليهود .. الله .. نحن

كان الجندى يردد بصوت خفيض .. بايقاع يائس وربما ساخر .. ويواصل ..

— امريكا .. الله .. روسيا ..

« انا الله القدير أسلك أمامى وكن كاملا فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك جدا جدا وتكون أبا جمهور أمم .. لا يكون اسمك ابرام بل ابراهيم .. ابراهيم الذى حملنى نصف الطريق عن أمى .. الذى لم ينقطع يوما عن ذكرى يافا .. ابراهيم الذى كان لا ينى يبصق طوال الطريق بين المخيم .. الذى كان يبعثر سمن الأمم المتحدة ودقيقها على الأرض ويدوس عليه بالحذاء ويقول للشيوخ والعجائز . لا تلومنى فهى ليست نعمة الله .. اجعلك أمما ويخرج منك ملوك .. أعطيك ارض غربتك ولنسلك من بعد جميع ارض كنعان كلها ملكا مؤبدا .. ابراهيم الذى قرأ التوراة وقال « لا عرف سر نبيهم » ومات .. خرج فى غارة عام ١٩٥٦ وقال لا تنتظروا عودتى .. الخرافة تأخذ حظها فى العالم يا صديقى الجندى .. سأنجو بالموت من الموت نفسه وصدقونى انا رجل ميت رغم انى أدلق السمن والدقيق كل شهر .. والبيانات العسكرية الم تسمعها .. الخرافة تأخذ حظها فى العالم ايها الجندى الشقى » .

— لماذا لا تضحك يا استاذ صايغ .. لا تبتئس .. انا لم اشأ ان ازعجك .. عساكرنا ذاهبة الى غزة لشراء بضائع مستوردة .. يعنى الثقة كاملة ! هل كنتم ترونهم فى الطرقات ..

اقصد ـ وضحك الجندى ضحكة هزمها الليل ـ كنت أريد ان أسألك سؤالا فخرج سؤال آخر .. وسكن وفى عينيه أسى ..

« غزة يا نجلاء .. جرح قلبى وصدر امى وتاريخنا طعنته واسعة .. آه لو دخلتك الأرجل العقربية .. تلك التى كانت تدب طول الليل وتركض ونحن قابعون محظوروا التجول .. نجلاء .. طعنتى .. وجوههم هل تفرغ ذل اتاريخ عليك ؟ ستصرخين .. سيعتدون .. يعتدون .. مضحك هذا الأمر .. المعتدون يعتدون ! .. كم فى الكلمات من خدع .. ستقتلين نفسك .. لا تقتلى نفسك هذه المرة .. لا تكونى واحدة فى طابور طويل .. ويسأل الله يوم الحساب لماذا انتحرت والروح من امرى ؟

وتقول نجلاء .. حتى لا الد صهيونيا .

سيغلق الرب الحساب . لا تنتظرى .. ستقاوم نجلاء .. ستقتل بسناكى بنادقهم .. ويسأل الرب يوم الحساب .

ـ لماذا انتحرت ولم يمسسوك ؟

ـ لم انتحر .. قتلونى .

ـ قاومت فاعطيتهم فرصة القتل .. عليك المسئولية ..

ـ لا احب ان احمل صهيونيا ؟

هكذا لأنه لا يواجه الرب احد .. سيغلق الرب الحساب .. لكن لماذا النسيان هناك أيضا .. ستصرخ نجلاء .. سينطلق اسمى صائغا لخوفها وربما عنادها .. ساموت هنا .. من كان يدرى ؟ .. منذ ثلاثة شهور فقط كنت هناك وها أنذا موثوق من كل ناحية .. خسئت من هواجس مدنسة .. اتركينى اثرثر

مع هذا الجندى .. آه .. كما أن هناك احتمالا بأن فى الأمر خدعة فماذا يمنع أن يكون هذا الاحتمال خدعة أيضا ؟ الأمر غامض كليلنا هذا .. اختفى القمر .. نحن الذين نتكلم كثيرا وآمالنا واضحة لا نعرف شيئا .. ونبؤاتهم الغامضة تتضح .. ويختفى القمر ولا يكون الا ليل . وتخدمك الأمم ويكون لا عنك ملعونا ومباركك مباركا .. ويعطيك الرب من ندى السماء ومن دسم الأرض طوبى لك ياسرائيل من مثلك شعب منصور بالرب هو ترس عونك وسيف عظمتك ؟ وكل مكان تطؤه أخامص أرجلك أعطيته لكم كما قلت لموسى .. »

ـ لماذا لا يحارب الله معنا ؟

« وموسى قال لهم أنا انبئكم بمن ينقل الذخائر للفدائيين بالبحر وكان عليهم .. وكان صمته بعد ذلك حتى الآن .. هل تعرف اننا تركنا موسى طويلا ؟ »

ـ يا أستاذ صايغ .. انت تحدث نفسك .. اسمع .. الشعب للأسف ابتعد عن أشياء كثيرة .. اليوم يضرب الولد أباه .. البنت تبلغ فتجرى وراء أبناء الحلال والحرام وتجمع بينهم فى وقت واحد .. والنسوان حكمن الرجل والرجال يبحثن عن نسوان الجيران وكثر اللصوص وشارع النصر صار شققا مملوكة لصالح الليبيين ولأشهر النسوان .

ـ ....

ـ ما يضايقنى هو موقف الروس .

ـ ....

ـ لماذا لم تجب على سؤالى .. قلت لك ألم يسبق لك ان احببت .. ؟

قال صايغ لنفسه .. لعل هذا هو السؤال الذى استبدله .. ولم يقل شيئا للجندى ..

ـ انى ألمح شيئا قادما فى الظلام .. انه لا يسير فى اتجاه واحد .. انزل أسفل الخندق حتى أستطيع أن أفاجئه واعترضه لأسمع كلمة سر الليل .

وقبل ان يختفى صايغ داخل الخندق سمع الجندى يسأل :

ـ هل ستظلون تنتظرون رسول السلاح هذا ؟

- ٤ -

فى مبنى الادارة : ذلك الموقع الثالث لفرقة الدفاع المدنى . تلك الفرقة التى جمعت أكثر شباب الشركة اهتماما بما يجرى ، والتى نيط بها دفاع هامشى عن مواقع هامشية حيث ترك الدفاع المدنى عن الورش وأماكن العمل الرئيسية بالشركة لفرق أخرى أقل قدرة واهتماما ! . فى أكبر حجرات مبنى الادارة كانوا .. وكان الليل يتجه الى النهار والترقب القلق الى حرائق للأجساد والأرواح معا . والحجرة واسعة بها حوالى عشرة مكاتب يتحول فوقها العمال ومصالحهم الى أوراق فى أيدى الموظفين وأرقام .. وكان انور متحفزا للشجار ويود لو حارب حتى الهواء .. سأل نفسه فجأة عن السر فى أن يكونوا رجالا هامشيين يدافعون عن هامش .. كان يقول لنفسه ان طائرات الأعداء لن تميز بين القلب والهامش ولكن ذلك لا يمنعه أن يتساءل عن معنى الموت على الهامش ؟ وكان ينظر حوله الى زملائه بمرارة .. انهم فى نظره لم يتوصلوا الى فهم ما توصل اليه .. اندفع يصب قرفه فوق خليل .

ـ انت فقط تجلس تتمتم وتبقبق بشفتيك ولا نعرف ماذا تقصد او تقول .

تحركت عينا خليل اليه ثم تحولتا عنه بسرعة الى سقف الحجرة المرتفع وتتابعت حركات شفتيه .

كتم صقر ووفا ضحكة .. أحسا أنهما حتى لو ضحكا لما صدر لضحكهما صوت .. كان طعم مر فى حلقيهما .. توجس كلاهما أن يكون طعم الهزيمة وقال علام :

ـ قلبى ينبأنى انه ستظهر الليلة ضفادع بشرية للعدو بالشركة .

ـ الاشارة التليفونية التى ابلغنا بها مسئول منطقة الحوض الجاف تقول انه ظهرت ضفادع بشرية فى راس التين وعلينا الحذر ..

هكذا قال الشحات بجدية وهدوء فتساءل صقر ببراءته وذهوله المعهودين وفى عينيه بريق الدهشة والخوف الطفولى ..

ـ ألم يقل ما اذا كانت الاشارة جاءته من الاتحاد الاشتراكى أم من غرفة العمليات ؟

هتف خليل فجأة وكان قد وقف .

ـ انه وحده الذى ينذر ! ..

« من الذى جعله يشترك معنا ؟ .. هكذا سأل أنور نفسه فى مضض وقال :

ـ هل تعرف الله حقا ؟ أنت مهووس .. انت لا تعرف غير الحضرة .. ـ وجعل يطوح براسه ـ الله حى .. الله حى .. وهل قال لك أحد أنه مات ! لقد نسيه الناس منذ زمن يا ..

دارت عيون صقر ووفا تتساءل ما هذا الذى يحدث ..

ولم تجد عين فى عين اجابة .. سقطت الاجابة فوقهم بلدتهم .. الحرب تدور عليهم .. أطل الاستخفاف من عينى علام بينما رفع خليل وهو واقف يديه الى سقف الحجرة . واستدار الى أنور مصوبا اليه عينين ناريتين مجنونتين بالغضب بينما كان أنور يقول فى نفسه « عادت ريمة .. » .. أدرك الشحات بحاسته نذر المعركة بين أنور وخليل فتدخل بهدوئه المعهود ..

ـ دعونا من خلافاتكم الساذجة .. لقد توقفت الاذاعة منذ فترة وهذا الراديو لا يساعدنا على سماع اذاعات أجنبية فى هذا الوقت .

وبرق فى ذهنه خاطر سريع .. لماذا فعلا لا يستطيع الراديو الآن بالذات اسعافهم بالاذاعات الأجنبية ؟ الحرب لا تنتظر حتى الصباح .. ونحن نقترب من الفجر .. وتهدج صوته بالبكاء وأحس انه يجيب على ذلك الخاطر السريع وكاد يقول .. نحن لا نعرف ماذا يحدث لاخوتنا .. الليل طويل جدا .. لماذا يتمطل الصباح .. ؟

تهادى صوت خليل بطيئا موقعا وهو لما يزل ينظر الى انور بتحد وبدا كمن يوجه حديثه لقوم آخرين ..

ـ سيظل الليل طويلا .. لن يعود تمام .. لن يجديكم لينين ! ليسمعنى ابناء الأفاعى .. لماذا تريدوننى حبيبا للينين ؟ ..

انتتر الشحات واقفا .. أحس فجأه أن المكان ضيق عليه .. انه لا حاجة اليه .. أن راسه صغير جدا لا ينفع ولن يتسع لشىء .. حينما وقف كان هدوءه قد سقط عنه وظل فوق الأرض ..

- أرجوكم .. كفوا .. انى متعب للغاية .

واتجه الى الحجرة المخصصة للنوم ليأخذ حصته بينما جعل خليل يدور فى الحجرة وقال صقر محاولا تغيير مجرى الحديث :

- الادارة هذه معتقل يحتاج الى قنبلة اسرائيلية ..

- ولماذا تكون اسرائيلية ؟

هكذا سأل أنور وفى سؤاله نبرة ادانة لصقر بالغباء وسمعوا خليل يهذى ..

- انه يراكم يا ابناء الأبالسة .. أشركتم به البشر .. انه يعرف .. يمهل ولا يهمل .. انه فى سيناء الآن لعنة حسبتموها منسية .. ! .

واتجه الى حائط مسدود وجعل يدق عليه بيديه .. أشار أنور اليه بهدوء وهو يقول :

- لو ارسلناه .. لو لم نرسل تمام .. كنا استرحنا منه على الأقل ..

وتابع خليل حديثه ..

- اذا ذهب خليل لن يأتى الخلاص .. انه فى كل مكان .. يا .. انذال ..

بدا الموقف مضحكا .. لكن شجبت رغبتهم فى الضحك حقيقة كونهم بلا سلاح حتى الآن .. انهم يتكلمون فقط .. قام علام بهدوء منسلا لينام دون أن يقول ذلك .. قال وفا :

- عندما سمع علام عن السلاح اختفى كمسدس كاتم للصوت ..

وعاد الشحات صامتا لأنه عندما استلقى فوق السرير بالمخبأ أحس انه لا حاجة له أن يبذل جهدا جديدا كى ينام .. واذا بصقر يتخلى عن براءة الأطفال وينفجر فى عاصفة ..

- انى اشعر أن المسألة عبث فى عبث .. اشعر انه لا يوجد من يفكر فينا .. اننا رحنا ضحية لعبة سخيفة .. ثم لماذا يكون علينا أن نحرس هامش الشركة .. !

قبل أن يتنبه أنور الى التساؤل الأخير .. التساؤل الذى سأله لنفسه من قبل كان صوت خليل وقد اتجه الى حائط آخر وجعل يطل من النافذة تجاه السفينة يملأ الحجرة ..

- نحن ضحايا أنفسنا .. انه موجود .. انه لا يأتى حتى نذهب اليه .. انه آت .. ليس من أجلنا .. علينا آت اليوم .. لقد تركنا السفينة تبنيها الأفاعى .. لم نبنها كما بناها نوح .. !

صرخ أنور .. لم يفلح أن يتمسك بحبل الهدوء الزائف .. صرخ بعد أن لعن معنى أن تدور الحرب ويدور خليل فى الحجرة حولهم وبعد أن سب محسن فى نفسه اذ سمح له بالاشتراك معهم ولعن مواقف التهاون والتخاذل ومسك العصا من المنتصف ، بل وأن يكون للمسألة الوطنية معنى غير معنى المسألة الاجتماعية .. !!

- هذا المعتوه يدور فى متاهات .. اخرجوه او دعونا نخرج .. - ونكس رأسه بحزن طافح على جبهته - لا شىء جاد فى هذا البلد .. هذا ما قلته دائما ..

- انه يسمع ويعرف .. لماذا ننتظره اليوم بعد فوات

الأوان ؟ سفينتكم جور .. انه اليوم لعنة فى سيناء .. لعنة فى سيناء ..

— ....

— ....

— ....

— عندما أذهب اليه يغمرنى بحبه .. وحبه .. وآراه .. ويرانى .. يمد لى يده .. مشعة .. يقول يا ولدى المتمكن .. الطيب تعال الى .. الى روحك .. اليك ! .. أذوب فيه .. عادل هو .. طريقه طويل صعب .. نهايته مسك وعنبر .. طريقكم ليس له آخر ..

وبدا أن خليل وهو يقول ذلك لم يعد يسمعهم .. أحسوا أنه قد فارقهم تماما .. كيف سقط جدار سميك بينه وبينهم ؟ ليست لديهم قدرة على التحليل والفهم الآن .. انور يشتم بعنف .. الشحات عاد لينام من جديد ! .. لحق بعلام الذى كان قد لحق به . وفا صقر ملأهما الأسف والحيرة .. قال صقر لنفسه ما معنى أن يشعر الانسان فجأة انه لم يعد يفهم .. رأوا خليل يتجه صوب الباب ويعبره الى الخارج .. كان يمشى بثبات كلوح رفيع .. كرجل ربط فى كهف مئات السنين ثم فكت قيوده فجأة وطلب منه السير . نهض وفا وقد شعر بنفسه متحررا اكثر وجعل يدور فى الحجرة ويقول ضاحكا وساخرا ..

— أيام ملخبطة .. تحرشات على سوريا .. مصر تعلن حالة التأهب وتتحرك جيوشها الى سيناء .. محمد عبد الوهاب يقطع اجازته فى لبنان ويعود الى القاهرة ليكون فى خدمة المعركة .. رئيس هيئة اركان حرب الجيش يرسل خطابا الى

الجنرال ريكى .. اسمه هكذا .. ريكى ! — ويظل وفا يضحك بهستيرية ويكمل — كى يسحب قوات الطوارىء .. يوثانت يلغى رحلته الى لندن للتباحث مع جورج براون ، جورج بنى ؛ هل رأيتم وزيرا بنيا ، للتباحث مع بنى هذا حول الجنوب العربى ويتابع الموقف من الأمم المتحدة .. صور للمشاة والطيران والمدرعات .. عساكر تضحك ملىء الفم .. اغان للمعركة .. حركة تلحين .. أهل الفن يجتمعون ليخوضوا المعركة .. رسالة يومية من أم كلثوم للجنود والضباط .. قوات من الكويت والعراق والجزائر لمصر ..

« وكأنما يصر العرب دائما على الهزيمة معا » . ونهض انور بعد أن قال لنفسه ذلك وجعل يدور فى الحجرة بدوره حول وبين المكاتب ويطرق عليها بكفه فى ايقاع ينتظم مع كلامه ..

— وتحية كاريوكا طلبت السفر الى الخطوط الأمامية .. واعلن الرئيس اغلاق خليج العقبة .. ويوثانت يصل ويسحب قوات الطوارىء ويعود .. يوثانت أعطى ويوثانت أخذ ! .. وحاملة طائرات أمريكية تعبر القناة فى طريقها الى المحيط الهندى .. وأنا .. مش خرع زى ايدن !!

وبدا صوت وفا وهو يتكلم يمتزج باختناق البكاء ..

— وحضر الملك حسين والناس حتى يوم اربعة يونيو كانت تتزوج ورجل استغل الظلام فزنق فى امراة بالأتوبوس وهى يبدو أنها « علقة » استمرأت .. وخليل يريد أن يجننا .. ساعة يصلى بنا وساعة يصلى علينا ! ورسول السلاح لم يأت وتمام ذهب ولم يتم شيئا .. خرج ولم يعد ولم تعلن عنه صحيفة سيارة !

وتشنج صقر وجعل يدور معهما فى الحجرة ايضا ويقول :

ـ والجيش لا نعرف عنه شيئا .. اموره سيئة بالتأكيد .. ونحن نتشاجر أو نهذى .. ترى من الغالب ومن المغلوب فى اللعبة هـذه ؟ اين الحقيقة فى هذا كله ؟ اين الحقيقة ..

وتوقفوا فجأة على سؤال صقر .. التقت عيونهم .. فيها خجل .. مشع منها قنوط يتحول الى حزن وخوف .. هـل انتهوا كلهم كخليل ؟ سؤال تعلق فوقهم ثقيلا مرعبا . وسقط الثلاثة فوق الأرض كما لو كانوا عرائس علقت بخيوط تركها لاعبها فجأة فهوت فوق خشبة المسرح بلا حركة ..

دارت عينا صقر مرعوبتين فى محجريهما وهو يقول :

ـ أخشى أن تعطل الحرب أول سفينة بنيناها ..

« اثبت محــلك »

بصوت صارخ عميق أجش مخيف مزلزل نطقها جندى فى خندق بعيد .. بعيد لكنهـا سقطت فوقهم فى الادارة فجمدتهم .. اختنق وفـا مذعورا وهو يقول :

ـ جندى يعترض ؟ .. كلمة سر الليل .. ؟

وصرخ انور .. أجل أنور !

ـ لماذا تركناه يخرج ؟

ودوت طلقة هتكت جدران الليل السميكة ففجرت كوابيسها المدفونة .. تلوى الكون وصخب الفضـاء وكأنما كل شىء فيه محتج .. تحركت احشاء الجميع كأن الرصاصـة تتلوى فيها .. مرق كروان سريع يصرخ كافرا .. كأنما الغرفة تدور بهم والادارة تسقط جدرانها فوقهم وسقوفها وكل نظمها القبيحة ! صــارت

الأرض تطويهم تحتهـا وتقلبهم وتطويهم وتقلبهم .. وصــارت وجوههم معلقة على صلبان ينظرون اليها من اسفل ! وصارت تنين خرافى يدهس رؤوسهم بأياديه الاخطبوطية .. قفزت الأنــوف محل الشفاه والعيون محل الأنوف والشفاه التصقت بالأقفية ! تلوت الأجسـاد وتشابكت .. تبـادلت العيون نظرات ملتويـة عنكبوتية متلصصة مرعوبة وغبية .. صارت الأرض قتادا ساما محددا والسقف وطأة زمن قديم كهل .. صاروا أجولة فارغة سلطت عليها تيارات هوائيـة عنيفة من كل جانب .. ينبعجون وينكمشون .. يتحركون فى كل اتجـاه وهم قابعون بضغط آلاف السنين من القهر والخوف والتوجس والكف المميت ..

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

مناجاة خليـل التى

لم يسمعهـا أحـد

ـ « لحظة طلوع الروح »

« اجيء اليك ، هل تقبل ؟ . تشردت روحي في الآفاق .. رأت خرابا يزول ، وخرابا يحل . لكنهـا ما نظرت الا اليك ، وما سمعت خلاف كلامك » .

***

« ألقيتني في اليم وقلت لي ، اياك أن تبتل بالمـاء ! . أظالم انت ؟ حاشا لك .. حاشا لك .. ولكن .. لم يفهمني أحد من خلفائك » .

***

« قالوا مجنون .. قلت عبد يسعى ، فضربوا على الآذان ورايت .. وما أبشع ما رايت ، الام ثكلى والابن موجود ! وترمل الرجـال والنساء في أحضـانهم .. ما هـذا اليتم ؟ ما هـذا اليتم » ؟

***

« الناس لا ترى الا ما يجرى أمام العيون .. آه .. هذا لب المسالة .. اما انـا » ..

***

منتديات مكتبة العرب
http://library4arab.com/vb

« بحثت عنك فى كل شبر ووجدتك فى كل شىء .. صار قلبى قابلا صورتك وبدين الحب صرت أدين . الحب أنت والعشق منك والذوق بك والتوق اليك فلماذا الرعب والهول يسكنان الأشياء جميعا ؟ لماذا الأيام تتوقف والانتظار يطول ؟ لماذا تتلبس الأرواح ابليس ويتلبسها ؟ وأنت عنى تبتعد رغم انك بين الشغاف والقلب تجرى مثل جرى الدمع من أجفانى » .

***

« فى حضرتك أبكى .. فى حضرتك أقول لك ما لم أقله الا لك .. تعرف رحلتى وسرى وسر الصمت وحملى اذ ناء جسدى وكلت عزيمتى .. تعرف حين رفعت صوتى أشق صمت قبر العالم كيف بحت عقيرتى » .

***

« قلت اذهبوا اليه يأتيكم قالوا أنه هنا ، انه العدل وانه الشبوع ولم يقولوا قط شيئا عن القسطاس المستقيم لكن لماذا ظللت بعيدا وليس من ساكن تحرك الا أنت » ؟

***

« قلت ما قلت .. لا تسرقوا ، ولا تزنوا ولا تكذبوا .. لا تهنوا .. كونوا أشداء على الأنفس والأعداء وكانوا يلفظوننى ولم تؤيدنى وروحك .. آه .. مزجت بروحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال » .

***

« بلدى .. بلدى .. والأفاعى بلدى .. ومدينتى لاهية ..

لماذا لم تعطنى عصا موسى .. قوة شمشون .. الست أنا أنت .. الست أنا الذى أهواك وأنا أيضا الذى أهوى ؟ ! لماذا لم تجعلنى أذبح ثور العالم الهائج » .

***

« ماذا تنتظر من الشجرة الآن والأرض أثمرت زقوما وخسرت صيحتى ولم أكمل لهم شيئا .. من ذا الذى أخطأ .. جندى أطلق رصاص سلاحه الحائر هو الذى أخطأ أم ذلك الذى أطلق رصاصه الغادر ؟ أم ذا الذى شد الناس للاهواء وحدثهم حديث الشعر والنجوى بعالم مزهر طريقه بحر من الدم .. وأعطى الوعد للناس .. لكم فى الأرض أمكنة وأهل الأرض غرباء وسأفعل لكم شيئا لم يكن يفعل ! .. أأنا الذى أخطأت واستحق القتل من جندى لا يعرف لم يقتل » ؟

***

« أشفع أنا المقتول لقاتلى المسكين .. الخوف قتال يا ربى فكم مرة مات البائس المرعوب ولم يعرف سرا ساذجا مشهورا وهو الذى حمل سرك الأكبر » !

***

« آتيك وحيدا تركت خلفى عصفورا مذعورا شق الليل برصاصة رعناء ، وحيدا تركت العصفور الذى لعله يبكى وحيدا كما آتيك » .

***

« عريانا آتيك كما ولدتنى أمى ، كما جئت فى طريق مظلم وطويل .. ها أنذا أترك كل الناس وخلفى كل الاخطاء ،

لكن رحلتي صارت عبثا .. بدات بطلق لا يعرف الرحمـة وانتهت بطلقة تطلب الرحمة » .

***

« يا من كنت سـمعى الذى به أسمع ، وعينى التى بهـا ارى ، ويدى التى بها أبطش ـ لم أبطش ـ وساقى التى عليهـا امشي ، وعين عين وجودى ، ومدى همى ، وكل كلى ، وتباعيضى واجزائى ، أجىء اليك الآن منفصـلا عن الدنيا ، ولتخرب الدنيا فما يجدينى أن أحيا ، كانت حياتى حلما تكشف عن كابوس ، فالأمـر لك ، والملك لك ، وكل ما فى الكـون لك ، لك ، لك ، ولتدهمهم بقراتك السبع العجاف أو فلتزدها عشرات ، ضراعتى لك الا تنسخ روحى التى تفر منى الآن وتجعل كل الأبنيـة من حولى تتهـاوى ولا يبقى سـوى ليل ودم يقطر منى لا تتشربه الأرض ويبلغ فيه أبناؤك سنينا وراء سـنين ولا تجعلنى أعود لانى لن اعود .. لن أعود .. لن .. » .

***

اليـــوم السـابع

ـ الانســحاب

وهل كان على

جبهتــين ! ؟

- ١ -

وضع محسن نفسه فى الأتوبيس . لقد كان يشعر أن الدهر كله سينقضى فى التحقيق ، وهو الآن يود لو نام فى المركبة ! لو يفسح له أحد مكانا ينام عليه .. كان ممسكا بالعامود المعدنى اللامع الممتد أسفل سقف المركبة بيديه .. أراح راسه بين ذراعيه وجعل يستدعى النوم .. هربت الطاقة وفزعت منذ الفجر .. هرب النوم مع هروب القوة ! ما ابشع ذلك . كأن بركانا تتهاوى حممه النارية فوق راسه المرهق . ما الذى شق الليل وحطم اكفانه .. ؟ ضفادع بشرية ؟ تخريب ؟ جرى ودار فى ساحة المركز .. راضى يجرى خلفه والدسوقى خلفهما ! يجرون ويدورون كأنما يريدون اللحاق بشىء فات . لا يلحقون حتى ببعضهم .. صوت الطلقة قادم من بعيد .. صوت جرس التليفون يتوالى مقيتا فى الحجرة فيدور بهم كعجلة النار ..

ـ آلو ..

ـ ....

ـ من يا وفا ؟

ـ ....

— خليل ! ؟؟ غير معقول ! ..

لماذا لم يكن ذلك معقولا ؟ سؤال لم يجد فرصة ليقفز الى الذهن .. اختلطت خلايا الراس وفسدت .. صار الليل فرسانا اسطورية تخب .. أفراد من الجيش وشرطة الميناء وضابط وكلام واسئلة تطير من كل ناحية .. لا احد يسمع ولا أحد يسكت والجندى .. القاتل .. القاتل ! منكسرا يردد ..

— لم يرد بكلمة سر الليل .. لم يتوقف .. لم يرد بكلمة سر الليل .. لم يتوقف .. لم يرد .. لم يتوقف .. لم .. لم ..

س : اسمك ؟

ج : محسن كامل .

س : سنك ؟

ج : واحد وعشرون سنة .

س : عملك ؟

ج : مدرب كهرباء بالمركز .

س : هل انت رئيس وحدة الدفاع المدنى ؟

ج : اجـل ..

« هل أنت جزء من المؤامرة » ؟

س : هل القتيل خليل العربى من أفراد القوة التابعة لك ؟

ج : اجـل ..

« كيف يصمد العقل والجسد .. ؟ ما ابشع الدفاع المدنى

أمام الولايات المتحدة ! كانني وحدى المسئول .. لاضحك بالمرارة كلها ولتنحبس الدموع ، ها هو تحقيق فى قتل ! .. يتسع الزمن الأجرب لكل شيء ، هجمة الصهيونية وهجمة البوليس !! »

س : لماذا كان موجودا بمكان القتل .. هل هناك مناطق للقوات هناك ؟

ج : قوة الدفاع المدنى الخاصة بالمركز يمتد عملها ليشمل الجراج والادارة وكل ما يقع بين الادارة والمركز .

« رسول السلاح لم يأت يا حضرة النائب .. وتمام ذهب ولم يعد .. هل قرأت عنه شيئا فى الجريدة فى باب الضائعين .. خرج ولم يعد .. خرجتم ولم تعودوا .. خرجنا ولم نعد .. خليل أيضا خرج ولم يعد ! والأسرة التى تنتظرنى منذ أسبوع تقول عنى خرج ولم يعد ، وتركت الأب الى السياسة فخرجت ولم أعد .. ليس مقدرا لنا أن نعود الى شيء ، واذا عدنا يا سيدى خرج الشيء ولم يعد » .. !

س : فى أى موقع من هذه المواقع كان خليل ؟

ج : بموقع الادارة ..

س : بماذا تعلل وجوده فى منطقة خالية لا يوجد بها شيء بين الادارة والجراج فى هذا الوقت .. ؟

ها هو الأوتوبيس يتوقف .. لا أحد يهبط .. لا أحد يصعد .. ليس هناك من واقف غيره .. لو التفت اليه الجالسون لراوه مشبوحا فى وقفته لا ينقصه الا جلاد يهوى على ظهره ..

ج : فى الحقيقة لا استطيع أن أعلل ذلك لأن من واجبه الا يغادر موقعه ..

« ماذا تريد أيها النائب .. انك لا تعرف شيئا فكف عن سخافاتك .. أسألنى من أنـا ؟ اسمى ليس دليلا على ولا عملى .. لمـاذا نحن هنا ؟ لمـاذا تشتت عقلى بين تيـارات عدة وينشتت الآن بين الجبهة وهنا ؟ . لمـاذا أكد من أجل غيرى ؟ . هـل تعرف أنه قد أضـاع بى قانون جائر للمعاشات ؟ لمـاذا لا نحقق شيئا ويحقق الكاذب والمدعى والصهاينة ! ؟ يشلنى انهيـارى عن أن أقذف فى وجهك خـلايا المخ المبعثرة .. لقد حدد العدو معاش أبى وحددنا نحن الهزيمة فى سيناء ، أليس كذلك يا سيدى ؟ لسانى فقط يجيب عليك » .

س : هل كان يعرف كلمة سر الليل ؟

ج : اجـل ..

س : كيف تبلغها لهم ؟

ج : أبلغهم بها قبل التفرق على المواقـع . واذا جاءت الكلمة متأخرة أمر بنفسى ولا احـاول ابلاغهـا عن طريق غـيرى او بالتليفون ..

س : هل يمكن أن تأتى الكلمة متأخرة . ؟

ج : ....

س : أجـب ..

« ها ها .. وتظـن انـك أمسـكت بى لأننى تعثـرت فى الاجابة .. لا تعرف ماذا يدور بذهنى الآن .. أكلتك الوظيفة يا حضرة النائب والاجابة جاهزة » .

ج : اجـل ..

س : ماذا كانت كلمة أمس ؟

ج : طلقـــة !

انتهى استجواب القيامة .. وخرج من بين عمـال الشركة الذين تجمهروا عند بوابة المركز ومعهم الطلبة والمدرسـون .. المهندسون يحاولون أن يصرفوا العمال الى ورشهم .. الأصوات تتعـالى وتتداخـل وتتصـايح .. الكثيرون يلتفون حـوله .. يسألونه .. يقتلونه ! لا يجيب .. والأسئلة تتهـاوى ولا يشفع أمامها تعب الراس .

ـ هل كان متعجلا الى هذه الدرجة ؟

ـ الم يكن قادرا على توقيفه بالسلاح وسحبه الى القيادة ؟

ـ وهل كان الثانى حمارا لا يعرف كلمة السر ؟

ـ سر ايه ومصيبة ايه .. احنا فى ايه والا فى ايه ! ؟ .

واهتزا الأوتوبيس بالتوقف .. لم يصعد أحد ولم يهبط احد .. انه الوحيد الواقف .. لو نظر اليه الجالسون لوجدوه مشبوحا ينقصه فقط جلاد خلفه !

س : ماذا تعرف عن القتيل ؟

ج : خارج العمل لا أعرف شيئا .. فى عمله عادى .. صالح وطيب .. لكنه كثيرا ما كان يبدو غير مفهوم .. كان يقول كلاما متزنا قبل الحرب .. كان ساخطا !!

س : بماذا تعلل ذلك ؟

ج : بماذا تعلل انت ! ؟ .. آسف جدا

س : ....

جـ : كان مؤمنا لدرجة عالية .. يقال أنه من اتباع احدى الطرق الصـوفية .. كثيرون يقولون ان له نشاطا كبيرا فى الحى فى الأعمال الخيرية . لكن ..

س : مـــاذا ؟

جـ : يبدو أنه قد جذب تماما !

س : هل لديك أقوال أخرى ؟

جـ : لا ... »

لـماذا لا يتكلم هؤلاء الناس ؟

لـماذا لا يقولون شيئا عن المعركة ؟

أليست لديهم اقوال أيضا ؟ أيكون كل شيء قد انتهى وهو فى التحقيق ؟ هل هنـاك بيانات اذيعت ؟ ولـماذا لا يهتز الأوتوبيس الا فى المحطـة وهو يعرف مطبات الشارع .. هـذا الشارع بالذات الذى لا ترحمه جراجات البلدية المشبوهة ! ثم كم الساعة الآن ؟ لينظر الى ساعة هـذا الرجل الجالس أمامه تحت عينيه .. الثانية عشرة .. فجأة غنى راديو السائق .. « وطنى احببتك يا وطنى » .

لم تكتمل الأغنية ! .. دقت الساعة فى الراديو .. لـماذا دقت الساعة الآن ؟ .. نقدم اليكم موجز الأنباء .. لكن السائق تحول بالمؤشر .. ارتفع من بين الركاب صـوت يطلب من السائق ان يدع الموجز .. ها قد تكلموا أخيرا .. لكن السائق قال :

ـ لا جديد .. بيانات الأمس .

جاء صوت المحطة التى رسى فوقها المؤشر .. صـوت يشحن محسن بالشجن ..

« انا النيل مقبرة للغزاة .. »

« أنا الشعب نار تبيد الطغاة »

الدموع تكاد تفجر قنواتها .. محسن يجاهد ليسد الطرق ..

« أنا الموت فى كل شبر اذا »

« عدوك يا مصر لاحت خطاه »

انه صوت المطربة الاسيان ، المشحون بالشجن والطيبة معا ..

« أين هو مدرس اللغة العربية الآن .. ؟ ماذا فعلت به الحيـاة ؟

عام ١٩٥٦ والعدوان الثلاثى والعاشرة من العمر والرابعـة الابتدائيـة !

هل فعلا انقضت عشر سنوات .. أين انت يا أستاذ .. آه ـ اسمك يا أستاذ .. حسان .. أجل .. تذكرته .. وهل نسيته ؟ انما هى عشر سـنوات يا استاذى الرائـع .. شـاخ تلميذك وهو بعد صبى .. صدقنى يا استاذ لم تفارقنى صورتك قط .. أراك الآن تجرى صورتك جوار الأوتوبيس وتطل على من النافذة .. قصيرا سمينا .. اصلع الرأس متهدل لحم الوجـه ملفوف العنق وطيبا..كم ضربتنا بالجلدة المزدوجة وكم احببناك.. جميعـا احببناك .. عندما كنت تأتى الينا بالاوراق المهمـلة فى الطرقات .. أوراق الفول والطعمية والجبن والزيتون .. اوراق طعامك .. وتقول لنا انظروا ما بها .. ويتحسر وجهك .. تتألم

عيناك ويطل منهما الأسف والوداعة معا .. لكنك كنت تنشد ما كتب بالورق بصوت عميق ، تاريخى ، أصيل ..

« دع سمائى فسمائى محرقة » .

« دع قناتى فمياهى مغرقة » .

« هذه أرضى أنا .. » .

وتدوس على الحروف يا أستاذ حسان .. تترك على كل حرف بصمة حبك وشجاعتك وربما أسفك أيضا ..

« وأبى ضحى هنا .. »

« وأبى قال لنا .. »

« مزقوا أعداءنا .. »

لكن أبى ما يزال يقرأ عدية ياسين على أعدائه يا أستاذ حسان ! . يقول لى لقد ولى زمن الجبروت .. القرية والثأر وموت أسرته .. لم يبق غير أخوته البنات وقفت له القرية كلها بالبنادق .. ترك أرضه يا أستاذ حسان .. الزمن طويل حقيقة.. آه .. فلابتسم باصقا على هذا الزمن .. لو نظر الى الركاب لابتسموا من بسمة المجلود هذه .. طلبت أن يحفظ كل منا نشيدا .. أكدت طلبك بجلدتك .. ما أعظم سذاجتك يا سيدى ! وحفظت أنا « النيل مقبرة للغزاة » مع مجموعة من الزملاء .. حفظت كل مجموعة نشيدا .. حفظنا جميعا « الله أكبر » .. أبى أيضا يعرف أن الله أكبر لذلك يقرأ عدية ياسين ! .. زلزلنا أرض الطابور .. حولنا درس المطالعة الى مظاهرة .. وحفظنا كل الأناشيد من فرط ترديدها .. معذرة يا سيدى الطيب نسيت الأناشيد لكنى ظللت أحفظ أنا النيل مقبرة للغزاة .. احب النشيد

وأحبك .. أحب وطنى .. لكن لماذا .. ؟ .. لماذا لا يحبنا الوطن يا أستاذى ! ؟ معذرة أستاذى لست أنا الذى أسأل » .

وتترى الذكريات على رأس محسن والأتوبوس لم يعد يتوقف كأنما عرف طريقة أخيرا ويريد الوصول الى نهايته بأى ثمن .. وصوت المطربة المشحون بالحزن يلف روحه عذبا شجيا .. ويرى نفسه وقد صنع كلبا من القطن وتقدم أترابه الصغار فى مظاهرة حلوة يهتف ويرددون خلفه « أيدن اهه » ويبتسم محسن .. ويعتذر لأستاذه عن الابتسام « أنا مازلت جادا كما اردتنى لكن .. » ويذكر أن كل أبناء الشوارع صنعوا كلابا من القطن والقش وهتفوا « أيدن أهه » يتحسر محسن على زمن الجسارة.. البراءة .. وينهض الرجل الجالس امامه من مقعده ثم يجلس من جديد .. يسأل محسن نفسه لماذا فعل الرجل ذلك .. يكاد يرتعد .. ويرتد من جديد الى الوراء .. عندما كان يقف جوار رجال الجيش والحرس الوطنى يتفرج على طلقات المدافع وهى تنطلق من فوق أسقف المنازل حمما طائرة .. كيف كان يرقص مع اترابه مع اندفاع الطلقات .. عندما كانت تختفى طائرات الأعداء فوق السحب كانوا يصرخون .. « حتظهر .. تراهن .. حتقع » يهللون عندما تظهر .. وتسقط الطائرة .. كل طائرة راوها سقطت .. يجرون الى كل ناحية ويعودون « يا عم تلاقيها وقعت بعيد فى آخر الدنيا » . وجعلوا من الحرب لعبة بينهم .. قسموا أنفسهم فريقين .. فريق الانجليز ، وفريق المصريين .. رفض أولاد فريق الانجليز أن يكونوا انجليزا .. اتفقوا حلا للنزاع أن يكون كل فريق للانجليز يوما وللمصريين يوما آخر .. كانوا يقفون صفين متقابلين على مسافة معقولة .. يرشقون بعضهم بالأحجار .. كان فريق المصريين دائما ينتصر

ويترك اصابات فى فريق الانجليز .. يوما كاد فريق الانجليز ينتصر وهزموه بعد لأى شديد .. هجم المصريون يومها دون حجارة ولم يبالوا وامسكوا افراد فريق الانجليز واوقعوهم ارضا واثخنوهم ضربا .. « آه .. من لى بزمن الجسارة .. البراءة » قال واحد من فريق المصريين بعد المعركة .. « نتفق غدا أن يتراخى فريق الانجليز لنغلبهم بسهولة ! . » نهروه .. قال محسن « لازم نغلب الانجليز والفرنسيين وبن جوريون حتى لو جابوا الدنيا معهم » وكان الذين نهروا صاحب الاقتراح هم فريق الانجليز بالأمس .. بعد ايام لم يبق فيهم واحد خال من الاصابة .. ادرك الأهالى سر الاصابات ومغبة تلك اللعبة السخيفة !! ضربوهم ونهوهم عنها .. « الأهالى دائما .. الكبار دائما يا استاذى » واعتدل محسن فى وقفته اذ لم يعد يشعر بالوهن .. ترك عينيه تنظران من خلال النافذة لكنه كان مايزال فى عالمه السعيد .. وتذكر إكبر غارة حدثت فوق الاسكندرية .. تلك التى قالوا فى الصباح عنها انها حطمت حى المنشية والبوستة .. تذكر الليل والفوانيس المعلقة فى السماء وصوت طلقات المدافع وصورتا وهى تطير الى السماء فى شريط متواصل من الحمم الحمراء .. حين كان أبوه جالسا على عتبة باب المنزل يرتل القرآن .. وحين سقطت قنبلة بعيدا لكنها كانت من العنف حتى اكادت تخلع المنازل خلعا عن الأرض .. لحظتها احتضنه ابوه وجعل يرتل « قل هو الله أحد .. الله الصمد » .. « يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على

صراط مستقيم .. تنزيل العزيز الحكيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » .. تذكر كيف حفظ نصف القرآن من ترديد والده .. وتعجب كيف لم يحفظ أبوه نشيدا واحدا .. لكنه على كل حال يحب أباه .. ويهتز الأتوبوس ويتوقف .. هذى هى محطة المكس آخر المحطات .. لماذا لا يريد هؤلاء الركاب أن يهبطوا ؟ .. لم يشأ أن يشغل نفسه فهنا لابد أن يهبط ويأخذ طريقه الى منزله .. اصبحت قوته الآن قادرة على النوم ! ، وهو بالفعل يحتاج أن ينام .. على الأقل من أجل الأيام القادمة .. !

- ٣ -

ظلت الأحاديث تطير بين العمال داخل الورش .. نسى الذين أحضروا أجهزة الراديو معهم أن يسمعوها .. غطى الحادث الصغير المفاجيء على الوضع فى سيناء ! أصبح أكثر العمال يتوقفون عن العمل فجأة .. يسأل العامل زميله ..

ـ لكن كيف نسى كلمة سر الليل ؟

ـ قدره .. الجو مكهرب .. أحوال الجيش لا تسر ..

ويتعجب العامل الذى سأل كيف انه عندما توقف عن العمل ليسأل وجد زميله متوقفا ايضا ليجيب !

ـ هل كان الجندى مسرعا الى هذه الدرجة ؟

ثم يرد على نفسه :

ـ .. لو كنت مكانه ما فعلت غير ذلك .. سنقتل بعضنا بعضا ! ..

ثم يدهش لأنه لا يسمع صوت الماكينات الصاخبة رغم انه كان يسمعه كل يوم ، ورغم أن الماكينات تدور أمامه ومن حوله .. يكتشف نفسه ميتا .. يوقف آلته ويديرها من جديد ليصدق انه موجود .

وفى مكان آخر يسأل عامل .

ـ لماذا تكثر الاذاعة من القرآن ؟

ولا يرد عليه أحد فيرى بالورشة سرادق عزاء ويكاد يطفيء سيجارته احتراما للميت والرهبة ثم يتنبه فسحب نفسا طويلا !

وعامل يقول فى حيرة :

ـ لقد تغيرت الأغانى .. بعد « راجعين بقوة السلاح » ، « واضرب » ، نسمع الآن « يا أغلى اسم فى الوجود يا مصر » .. مناحة هى أم حرب ؟

ـ لابد أن القتيل كان حزينا ..

ـ يقولون انه طيب يعرف الله ..

ويتحول عامل بالحديث ..

ـ لكن حتى الآن يحدث ما يثير الحزن ..

ـ هل تنتظر من تدخل الدول الكبرى خيرا .. أمريكا يا عرب ! ـ ويضحك فى مرارة ـ اكاذيب ـ ويعض على نواجذه ـ تكشفها حقائق ..

ويظلل الصمت عليهم .. تغلف الوعى الكآبة .. إسرفوا على أنفسهم وعلى الوطن ؟ . لكن ..

العمل أصبح الآن مضجرا .. كل عامل يشعر أن هناك ذراعا شيطانية ممتدة فى الهواء تتربص به .. أن سقف الورشة سينهار عليهم .. يودون لو يهرعون الى سيناء .. الصحراء ..

لو يرون بأعينهم حتى لو ماتوا .. الموت هنا بطيء ورخيص ومجـانى ..

***

فى منطقة « القزق (*) الصغير » حيث تبنى السفن الصغيرة كتب عامل صغير .. اصغر العمال سـنا بالقلم الكوبيـا على ورقة اختارها نظيفة .

السيد المهندس مدير منطقة القزق

تحيـة وبعد ؟

نتقدم اليك نحن عمال القزق الذين نحب عملنا جدا والذين ايضا نحب الشركة ونحب الوطن ، نطلب منكم تأكيدا ودعمـا لدوركم العظيم فى الحفاظ على الأمن والنظـام وسير العمـل أن تشاركو سيادتكم فى عبء الدفـاع المدنى ، خاصة وان القيادة الحالية متراخية كما هو واضح من مقتل أحد الزمـلاء ، ونظرا الى انه لا سبيل الى اصلاح هـذه القيادة الا بقيادة بديلة حازمة كقيادتكم . وتأكد يا سيدى اننا فى غيابكم سنعمل بنفس النظام والحرص اللذين نعمل بهما فى حضوركم واذكر دائما اننـا لا نفعل ذلك ، ولا نطلبـه ، الا لأننا نحب عملنـا ونحب الشركة ونحب الوطن . نرجو يا سيدى أن تسارعوا فى هذه المهمة التى ستفيدنا وتفيد الوطن !!

عمال منطقة القزق

(*) « القزق » اسم المكان الذى تبنى فوقه السفن وهو عـادة مستطيل منحدر من الخرسانة المسلحة يتجه فى انحداره الى المـاء الذى تفصله عن بوابة ضخمة تفتح عند التدشين .

وجعل يقفز من أعلى السفينة الى اسفلها وبالعكس وداخل جوفها يجمع التوقيعات بين ضحكات العمال ولكزاتهم وعندما اكتملت التوقيعات أسرع الى مكتب مدير المنطقة . ولكنـه فى منتصف الطريق جلس على الأرض وجعل يبكى ..

***

فى الورشة الرئيسية حيث المكان متسع للحركة كان هناك من يأتى لزميله من الخلف صارخا « اثبت محلك » ولكن الآخر يستدير اليه فيعتذر الأول ويربت على كتفه ..

***

فوق السفينة الكبرى ، التى تبنى فوق « القزق » الكبير.. تلك التى ينتظر العمـال تدشينها أملا بالعرق والدم .. والتى اصبحت حديث المنطقة المجـاورة للشركة حتى أصبحت كلمـة « تدشين » راسخة تتردد فى أحاديث السكان دائما . فوق هذه السفينة كان بعض العمـال يتطلع الى البحر والأفق . البعض يقوم بأعمال اللحـام على الجوانب وداخـل الغرف الضيقـة بجوفها .. وكانت رافعتان جبارتان تتحركان على الجانبين تحملان قطعة ضخمة تشكل مقدمة السفينة لوضعها فى مكانهـا فوق القزق حيث يتم بعد ذلك وصلها ببقية البدن بلحـام قوى .. ان وضع المقدمة يعرفه العمال بأنه المرحلة الأخيرة فى البناء . لا يبقى بعده الا العمليـات الانهائية مثل الدهـان وتركيب الدفة ثم وضع الشحم الذى ستنزلق فوقه السفينة . ثم يكون الاعلان عن يوم التدشين فى الجرائد اليومية .

قال عامل من الواقفين فوق سطح السفينة لزميله :

ـ من هنا ، من وراء هـذه الأفق يأتى الشر . تعبر البحر تجد نفسك فى اسرائيل ، لكن كيف ؟

قــال زميله :

ــ حتى الآن لم يزع بيان .. لقد شغلنا القتيل .

ــ الساعة تدخل فى الواحدة . علنا نسمع شيئا بأنباء الواحدة والنصف .

وما كاد يقول ذلك حتى حطمت الكون قبضـــة خرافية . كأن براكين منسية تفجرت فجـأة بعد كمون طويل حول ووسط الشركة .. كأن جبالا صخرية كانت معلقة فى الهواء وسقطت فجأة فوق الورش . كأن البحر المردوم بالتراب استيقظ فجـأة من غفلته وزلزل أرض الشركة ليسترد أرضه المغتصبة ! .

انفجار .. انفجاران .. ثلاثة انفجارات .. انفجـارات متوالية .. تخلخلت الأجزاء المجمعة من السفينة وانتفضت .. انبعجت المؤخرة وتطـايرت أجزاؤها .. تمزقت سلاسل الرافعتين المعدنية الغليظة فسقطت المقدمة فى غير موضعها مدوية فوق الأرض الخرسانية .. تطايرت جزوع الشجر الضخمة التى كانت تقوم بدور الدعامات التى تسند بدن السفينة من الجانبين .. انفجرت عربا التدشــين أسفل أجزاء السفينة فهوى البدن فوق أرض القزق المسلحـة أجزاء منفصـلة ومتطـايرة .. انفجرت البوابة الضخمة التى تحجز المـاء عن القزق نفسه فغزا البحر كل شيء .. ورغم ذلك كانت النيران ترتفع فوق المـاء فى كل موضع . وشـــوهدت شظايا ، ألواح من الصاج ، طائرة مشتعلة فى الهواء تطيح بما يعترضها لتسقط فى أماكن متفرقـــة محدثـــة خسارات فى الأرواح والأشياء .. أحس الذين كانوا فوق السطح بأن طاقة سفلية شيطانية طيرتهم فى الهواء فهووا الى البحر بعيدا بعشرات الأمتار جرحى وموتى وفاقدى الوعى .. طارد الفزع أولئك الذين كانوا يســيرون بالقرب من السفينة ينقلون العدد

والأدوات فجروا مصـــابين صارخين والنار مشتعلة بأكثرهم . لم يكونوا يعرفون لمـاذا يجرون أو الى أين ؟ فى الوقت الذى سـقط الذين لم يصـــابوا على الأرض وتقـلبوا مرة أو مرتــين أو كفوا خالدين !

لم يفكر أحد من الورش فيما يمكن أن يكون قد حدث .. كانت الانفجارات عنيفة حتى لسمعتها الشركة جميعها والشوارع والمنازل فى الأحياء المجـاورة .. كان الجميع يجرون من كل الورش صـــوب السفينة .. لم يكن صوت الانفجارات موجههم ، انما هو احساس قديم غرسته الأيام السابقة .. وصار الدخـان يغطى مساحات واسعة وعالية فى الفضـــاء ولا يترك متنفســا لصرخات الجرحى ، ولم يكن فى الحسبان ، انين الموتى فى الغرف السفلية بجوف السفينة عند هــذا الدخان .. قطع عمـــال الكهرباء التيار من المحطة الرئيسية وكذلك فعل عمال الأكسجين والأستيلين . خـاطر خاطف عبر بهم بأنهم لأول مرة يقومون بواجب ! رغبة دافعة استبدت بهم أن يسرعوا الى مكان الحادث ، لكن كيف ؟ هم بالذات لا يستطيعون أن يتركوا عملهم .. وبصقوا فوق الأرض .. وأصبحت الحركة فى الشركة خرافية . لم يفكر أحد بأنه قد تكون هنـــاك قنابل موقوتة .. كان البعض يقفز الى البحر لينقذ الذين قذفوا اليه ، فى الوقت الذى كان فيه بحارة السفن القريبة المرابطـة فى الميناء ينزلون قواربهم بسرعة فائقـــة ويتجهون بها لانتشال أولئك الذين سقطوا فى المـاء . وكان فريق آخر من العمـــال يجرون بخراطيم الميـــاه يمدونها بسرعة فوق الأرض ويصلونها بصنابير الحريق القريبـــة من المكان بينما كان هناك من يهرولون حاملين اسطوانات كربونيـــة للاطفاء أيضا . وملا الفضاء صخب عربات الاطفال بالميناء وهى تقترب من الموقع واصوات عربات أخرى تشق المناطق المجاورة فى اتجاههم ..

وكان بحـارة المدمرات السوفييتية القريبة من الأرصفة يهرولون عراه الا من سراويل قصاة وهم يحملون اسطوانات الاطفـاء بينما كان يطلق بحـارة المدمرات البعيدة قواربهم كالريح فى اتجـاه الغرقى والنيران .

ـ تخـريب ؟

ـ ضفادع بشرية ؟

ـ انهـا السفينة ..

وتجرى الأقدام يدفعها كائن خرافى اسمه « الوطن » ورغبة الخـلاص من تلك الظروف القاسـية نسجها الأباطرة حـول الانسـان !

***

كان صـايغ أسبق من فى المركز فى الوصـول الى مكان الانفجارات .. لم يكن قد غادره بعد مصرع خليل وبعد أن اخذت اقواله فى الصباح .

كان قد آثر ان يظل فى المركز وينام فى حجرة الاسـعاف حتى يأتى المسـاء ويجتمع الرفـاق .. لقد احس بعد التحقيق إنه لا يعرف مكانا يذهب اليه . تضخم العجز الى مهانة انسان يرى نفسه طريدا .. قال فى نفسه انه النوم يداوينا ولو ضيع علينـا الفرص المواتية .. فليكن النوم . رأى الحرائق وهى محـاصرة من كل ناحية بعمال الشركة ورجال الاطفاء وبحـارة السـفن القريبة وجنود المدمرات السوفيتية .. لكن الحرائق ظلت فى عينيه كبيرة تملاء أيام التاريخ .. رأى الجثث المشتعلة وقد لفت « بأوفرولات » العمال وينبعث منها دخـان كدخـان الخشب

القـديم يحرق عينيـه .. الجرحى المتسـاندون على زمـلائهم يصعدونهم الى عربات الشركة وعربات الاسعاف وقد انسكبوا دما وحسرة على الخديعة والمباغتة .. كانت عيونهم تصرخ ، لو رأينا عدونا مرة ، لو عرفنـاه ، لأصبح للدم قيمـة ولو كالمـاء ! رأى السفينة التى انفجرت مؤخرتها وانبعج جانباها وأصبح بدنها كله فجوات واسـعة يطل منها الدخـان الثقيل .. رأى كيف استقر القاع محصـورا ومحسورا تحت المقدمة التى سقطت فى غير موضعها وكيف أصبحت السفينة ملتوية الى أسفل ويغطى نصفها ماء البحر .. والرافعة الجبارة على الناحيـة اليمنى وقد انتكست ذراعها الضخمة وأرغمت رأسها فى التراب .. كم أصبح شكل المكان بشعا وكم يصم بالادانة .. وانغرست أصـابع صايغ فى الدم وهو ينقل الجرحى .. وترت أنفه رائحة اللحم المحترق وهو ينز سائلا لزجا بينما كان ينقل الموتى .

« أهكذا فى لحظة واحدة يتحول كل شىء الى رماد .. ؟ أهكذا تجهض أحلام البشر وتشتعل يا صايغ ؟ شهر واحد وكانت ستهبط الى البحر مجملة بالورود .. شهر واحد وكنت ستراهم يرقصـون حولها وفوقها ويجرون معها الى المـاء يودعونها بدموع تملاء البحر .. هـذا أول البناء .. أو الثمرة ، والثمرة الأولى مزاق الفرح الكونى .. كانوا وكانوا يا صايغ وبئس الفعل فعل كان وولى .. لمـاذا يضيع كل شىء وتفجع النوايا الطيبة .. ؟ ها هو جهد السنين يتبخر امام عينيه .. ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ . الا يمكن أن تمتد نفس الأيدى لتفسد ما قد يبنونه من جديد ؟ وما يدريك ؟ الا يمكن أن يكون كل شىء انتهى هنا الى الأبد .. وتظل تتفرج وتنتظر الأبد يا صايغ وهو ابيد ! »

نقل صايغ أربع جثث محترقة وعشرة من الجرحى وانهـار

تماما .. شبوه الهباب ثيابه ووجهه وملاء الدم يديه وتناثر على اكثر من بقعة فوق الثياب وغطى الحذاء .

« س : اسمك ..

ج : صايغ فهد الناصر ..

س : مصرى ؟ ..

وترددت لحظة .. لماذا ترددت قبل أن تقول فلسطينى ؟ ذرية حياتك يا صايغ .. تحمل جواز الترحال الدائم وليست كل البلاد مفتوحة امامك ان رضيت بالترحال ! ما أكثر الحدود التى تغلق أمامك وما اكثر الحدود التى تغلق خلفك وما ابشع الحصار ..

س : أين كنت ساعة أطلق الجندى النار ؟

ج : ....

وترددت قبل أن تقول انك كنت قابعا فى ركن الخندق المسقوف .. لماذا لم يغتالك هذا الاحساس وقتها .. تعودت على الرضا بالأركان المظلمة المسقوفة المخندقة التى تجعلك لا ترى ولا تميز شيئا .. أليس كذلك ؟ .. لا تهرب من نفسك .. تحمل جوازا وحياتك ركن واحد مظلم وكئيب ! . هل تكذب ؟ الا يجتاحك هذا الشعور فى كل مكان تحل به وأنت الذى تحاول أن تنكره .. والمهم أنك تنجح فى انكاره لقد عرفت نفسك كيف تقيم توازنها .. كم شعرت بأن المكان ضيق وانك فى الوقت نفسه لا تريد أن تبرحه ! وكم أنكرت ذلك ؟ لكن الحقيقة تقول انك مختف دائما لا يعرفك النور ولا تعرفه .. هل يجديك الآن انك مهندس للكهرباء ، تعلمها للطلاب والظلام يحاصرك .. ملعون

أنت فى الأرض الى الشمال ذهبت أو الى الجنوب .. شرقا سوحت أو غربا تسير .. تطاردك اللعنة والرضا باللعنة والسفر بلا متاع .. متاعك المتاعب يحملها اليك الآخرون ! هل تقول لا ؟ هل تستطيع .. ؟ ماذا تنتظر والموت لحظة لا يدركها الشعور والعيش هنا موت تدركه .. أهى أمال تعقدها على جيوشك العربية وأنت كسيح ؟ تحوطك المشاهد المفزعة ويحاصرك الدم وتغتالك الهواجس عن الأم ونجلاء والموت فى التاريخ مريح لك من عناء الفكر فى الأهل . هكذا فعل الموت بأبيك .. لو لم يمت أبوك لزاد فتقك .. ألم تقل ذلك لنفسك بالأمس بسرعة البرق لتقنع نفسك بأنك لا تفكر هكذا . ها هم يأتون اليك حيث ذهبت .. ان ظهرك أمامهم ، هذه هى المسألة .. فهل تنتظر أن يولوك ظهورهم وهم لم يروا وجهك حقيقة .. فلتنفض عنك سنين التجوال العبثى والغربة المهينة للنفس المخذولة .. لتضع تلك الروح الهائمة فى مكانها الصحيح .. هذه أيام لهم ولن تكون عليهم وأنت قعيد ..

هه . « دبرها مستر دل » (*)

ومستر دل صار عربيا يا صايغ .

ملعونة اذن هى الذكريات اذا صارت خبزا ..

مقطوعة يمينك التى لا تقتل ..

على شاطىء مصر بكيت كثيرا .. فلا تنتظر يوما تبكى فيه ضعة قلب العروبة النابض وملجأ الثوار !

(★) « دبرها يا مستر دل » احدى القصائد الشعبية لشاعر الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ نوح ابراهيم الذى استشهد فى احدى معاركها . يخاطب فى قصيدته « مستر دل » القائد العام للجيش الانجليزى بفلسطين مؤكدا أن الشعب هو الذى سيحل قضيته .

الا ترى بشاعة الخدعة فى اللغة .. ثوار .. ملجأ !! ما أفظع القول البليغ .

فليكن أبدك من جماجم الأعداء ..

ولترفع ستارة الموت أمشاط رصاص فى وجوههم .. لتترك هذا المكان لأهله ..

ولتكن أهلا لمكانك !

ابحث عن سفينتك التى تهدمت منذ أزمان ..

قابعة هى فى كهف الغربة تنتظرك ..

دشنها . ولتعلم ان لكل نهاية بداية . !

مستر دل لم يعمل أو يدل !

لا يجرفك يا صايغ الا الموج الناعم ..

ملعون أنت ان نسيت القدس ..

ولتمزق الصقور كبدك ان نسيت يافا والرملة ودير ياسين .. »

— وماذا اذا بدأنا من جديد .. لن يهمنا شيء .. سنبنى السفينة يعنى سنبنيها .

هكذا صرخ عامل لزميل جريح .. التفت فاذا به يرى صايغ خائرا فوق الأرض يجاهد لينهض .

مدا اليه يده .. قال له بصوت واثق :

— متعب .. يدك .. انهض .. لا تبتئس .. انها أيام عظيمة رغم أى شيء .. سنبدأ من جديد .. سيصبح كل شيء

فى مكانه .. من ماتوا شهداء .. من عاشوا سيتعلمون الا يموتوا هدرا ..

وأخذ بيده ينهضه فأحس العزم بين أصابعه .. ابتسم فى وجهه .. ربت على كتفه وتركه .. تابعه صايغ بعينيه فوجده يقفز بين جموع العمال يضحك ويهز من يقابله ويهرول ينقل جريحا أو قتيلا الى عربات الاسعاف ويعود بسرعة لينقل ويباشر تحرك العربات .. سرت فى صايغ موجات فرح طاغ .. أحس أن صوت ذلك العامل قديم قدم النسيان ! قدسى يتجلى له من فوق الطور .. اتسعت به الدنيا ورأى طائرا محلقا فوق الأغوار ..

- ٣ -

نظر علام الى ساعته فوجدها الثامنة والنصف .. « بنت الآفة انهكتني » رفع رأسه من بين الجمهور الواقف تحت مظلة الحافلات فى محطة الرمل عله يرصد حافلة مقبلة .. الظلمة تغشى كل شيء .. مصابيح السيارات القليلة السائرة على مهل ؛ زرقاء قاتمة تنبعث منها الأضواء شحيحة .. « أى محطة الرمل ، كيف كنت فى هذا الوقت من العام الماضى ؟ يونيو الصيف وكرنفالات الأزياء .. يونيو اللحم الريان المتفجر المتحدى الظمآن يرفع راية التمرد والرغبة فى الاذعان فى آن ! .. اللعنة على الصهاينة .. على اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل ! ولماذا لا يلعن الله الانجليز حيث غرسوهم ؟ ولماذا لا يلعن الله الظروف التى جعلته يولد فى مصر ويعيش حربين فى عشر سنوات .. فى الحرب الأولى هدمتهم مدرستى ، وها انذا اعيش لأرى يوما تغلق فيها القيادة المصرية مضايق تيران . كان يمكن أن ينتهى كل شيء بالسياسة ! علام هذه العنجهية ؟ » .

مر أمامه طيف مغرى .. فتاة عارية الذراعين .. لمع بياض ذراعيها فى عينيه بالسحر كله .. وقفت قريبة منه .. برقت عيناه فى الظلام تمسحان جسدها من رأسها حتى قدميها .

ما كادت عيناه تصلان الى قدميها حتى كانت ثيابها قد سقطت وأصبحت عارية أمامه ووحيدة تحت المظلة حيث اختفى كل الواقفين .. اصطدم به ضرير يبيع الثقاب فى الوقت الذى كان فيه قد أنامها فوق الرصيف وقفز فوقها ! .. عاد ينظر فى قرب الى الساعة فى معظمه .. تناثر القلق فوق وجهه .. ماذا لو لم تأت الحافلة ؟ ترى ماذا سيقولون عنه فى العمل وهو الذى اراد باشتراكه معهم أن يمسح عن أعينهم غشاوة الفكرة القديمة عنه ؟ كان لابد أن يوجد فى العمل منذ ساعتين على الأقل لكن ما ذنبه ؟ لقد تأخر حيث كان عليه أن ينتظر انتهاء التحقيق مع زملائه ..

« أكان لابد أن يموت هذا الغبى اليوم ؟ » ابتسم .. كان خروجه متأخرا بركة ! .. كيف كان سيجدها لو لم يتأخر لقد تم كل شيء كأن يدا سرية تحيك الأمور ببراعة .. يقتل خليل، يحدث تحقيق ، يتأخر بدافع العرف الساذج ! يركب تراما لأول مرة وهو الذى اشتهر بركوب التاكسيات حتى اطلقوا عليه علام تاكسى ! هو نفسه لا يدرك لماذا ركب الترام وكيف كان معجبا بحركتها البطيئة .. ويجد فى النهاية ذات الجسد المتفجر مجرم الاغراء .. بالكون روح جنسية توحد الرغبات المحبطة .. إجل لابد من ذلك .. ورقصت العيون وهي تصطدم ببعضها رقصة حذر وانباء معا ! وقال رجل :

- لم يذع بيان حتى الآن .. مازلنا نسمع بيانات الأمس..

ارتفع هدبه الأيسر مائلا نحو الباب اشارة هبوط .. هذا الجسد لا يحتاج الى مقدمات .. أمر مباشر .. انه جسد التحدى الفاجر والدعوة السهلة المستترة بالتلمظ فى انتظار الأمر !

ما أجمل المراة الطيعة .. اخفضت راسـها .. ابتسمت ابتسامة الرضـا وهى تنظر الى قدميها فى خجل مشجع !

قـال آخر :

ـ لابد ان فى الأمر عثره .. الساتر ربنا ..

احتج ثالث :

ـ لا .. اليهودى جبان .. وامريكا لن تفعل شيئا لهم .. هناك سلاح البترول ..

ورابع احتج عليه من طريق آخر ..

ـ العرب لا يتفقون على شىء .. ماذا يريدون منا ؟ لقد ضاع عمرنا عليهم ..

((لكننا نتفق ، اليس كذلك ؟ هل يعجبك هذا اللغو ؟ ..)) واشـارة ثانيـة بالراس كله ، اشـارة واضحة ترفض الرفض او النزوع الى اى تكتيك أحمق .

وقال عجوز بحكمة محبطة :

ـ قال سعد .. العرب صفر .. ومصر صفر !

وهتفت امراة من قلبها :

ـ ربنا مع أولادنا .. اذكروا ربنا ..

وانشغل الركاب جميعا بدعوات غير واضحة ..

توقفت الترام ، فاتجه نحو الباب الأمامى .. هبط وهبطت هى من الباب الخلفى ..

استمرت الترام فى طريقها الى المنشية . مال هو الى شارع

الخديوى مخلفا تقاطع البورصـة وراءه .. جعل يتمهل فى الخطو حتى حاذته .. لما سبقته بخطوتين همس ..

ـ مهـلا ..

وفى لمحة كان الى جانبها .. نظرت اليه بجانب عينها اليمنى وابتسمت .. انقذفت يده من جانبه لتمتد الى صدرها لكنه اوقفها فى الهواء وهتف مشيرا بها ((تاكسى)) بينما فزعت هى ثم تهتكت فى الضحك . تسمر التاكسى فى الأرض فجذبها من ذراعها واسرع بها اليه .

وتسارع الواقفون تحت المظلة الى الحافلة التى وصلت متباطئة كعجوز . ما رقم هـذه الحافلة ؟ لماذا لا تتحرك الفتاة اليها ؟ نظر اليها فتراجعت واستندت الى جدار المظلة .. خطا خطوتين الى اليمين .. حملق فى رقم الحافلة .. انها رقم (٢) .. ليست اذن حافلته .. وهى لم تصعدها ، اذن حافلته حافلتها ايضا . قد تكون فى انتظار حافلة العجمى ؟ لا بالتأكيد لا . فهى وحيدة والعجمى شاطىء لا يعرف الوحدة .. آه .. هـذا وجه مليح لو رآه شاطىء العجمى لانتقل اليه ! .. لكن .. لا اريد أن اكون مثل محسن أو أنور اغرق نفسى فى تحليـل كل شىء .. امامنا دقائق يا بنت الحـلال .. استند بظهره الى جـدار المظلة مثلها .. ثبت نظره فوقـها .. لم تهتم به .. تركت عيناه ذراعيها واستقرتا على صـدرها .. جعلت عيناه تهبطان حتى اول الجوب القصير فى خط مستقيم واحـد ثم تتولى كل عين ساقا ! لكنها ما تزال لا تهتم به .. أين انت منها سيدة الصباح .. كانت مطواعة .. ما أطيب المراة الطيعة . سأله سائق التاكسى الى أين ؟

ـ سيدى بشر ..

وكأنما لدغ السائق صرخ :

— سيدى بشر ! ؟ لماذا لم تقل قبل إن تركب ؟

« **انني لم أركب بعد !** » ونظر اليها باسما « **وهل لابد ان أقول قبل ذلك أيها الأحمق** » .

— لا تتضايق .. سأعوضك عن الطريق .. اعصابك مرهقة ؟

قال السائق ساخطا :

— طبعا يا محترم .. أنا تائه .. الجيش يا أخ .. الجيش تاه ..

« **أى حصار غبى هذا** » قال ممتعضا :

ربنا موجود ..

انطلق السائق غاضبا بالسيارة .. ظل صامتا جوار المراة وظلت صامتة .. بعد فترة قال السائق :

— لكن سنهزمهم .. قلبى يحدثنى بذلك .. فى عام ١٩٥٦ حاربنا ثلاث دول .. امريكا لا يمكن أن تدخل المعركة .. الروس لا يسمحون بذلك ..

رد باقتضاب :

— طبعا ..

— انا فى عام ٥٦ كنت فى سيناء .. صدر لنا امر الانسحاب فرجعت مشيا فى اثنين وعشرين يوما .. كان بودى ان اقتل منهم مئة ولكن الحظ خاننى ، الانسحاب يا اخ ! هذه المرة سيقتل اخوتنا نصفهم .. لا انسحاب هذه المرة يا محترم .. لا انسحاب ..

كان قد التفت اليها وترك السائق يتحدث فوجدها اغمضت

عينيها وتركت صدرها يعلو وينخفض .. امتدت يده لكنه ادخلها فى جيب قميصه يخرج بها علبة سجائره .. أشعل سيجارة وقدمها للسائق عله يتلهى بها عنه لكن السيجارة فيما يبدو فعلت فعلها فانطلق السائق يتحدث عن تجربة ١٩٥٦ كلها . جوعه وعطشه .. كرم البدو وغدر البدو .. السلاح والرمال وورم الأقدام .. وعلام يكاد ينفجر ويود لو يقفز من النافذة . ولم ينقذه الا وصول التاكسى الى طريق الكورنيش فوجد فرصة أن يرسل بصره عبر سطح المياه الساكن والممتد الى ما لا نهاية .. وكان اندفاع السيارة فوق الكورنيش فرصة كى ينتعش السائق بالهواء ، فأسلم نفسه لذلك وكف عن الحديث بينما ظل علام مسرحا بصره عبر البحر وفوق المياه وبطول الطريق تمتد أمامه صورة المراة التى الى جانبه نائمة مغمضة العينين يتكلم صدرها ! ثم رأى نفسه يدخل بها الشاليه فى أرض البنا .. لا يوجد احد بالشاليهات المجاورة « هذه قائدة الحرب » وهجم عليها جائعا ففرت من أمامه وهى تتأود قائلة :

— مهلا ..

لكنه انقض فوقها فسقطت ملاءتها واستوت أمامه بيضاء الذراعين مبهرة البياض يكشف طوق جلبابها الأملس نصفى ثدييها واخدودهما المحاصر ! اضاءت الدنيا فى عينيه وبرقت برقا طويلا ساطعا فاشتعل جسده وصعدت النار الى رأسه واحس أن تيارا هوائيا ساخنا يدور فى أحشائه يجفف حلقه فأطلق فمه يقبلها فى كتفيها العاريتين ووجهها ثم احتضنها بقوة .. وتوقفت أمامه حافلة أخرى أسرعت اليها الفتاة .. ازدحمت الحافلة وكانت رقم (١) .. هى اذن حافلته .. اتجه الى الباب الخلفى حيث صعدت . وكانت واقفة وسط الزحام فى ضيق « العربة ممتلئة وكل شىء فى صالحك اليوم منذ الصباح . كانت

المحطة خالية أو تكاد وفجـأة امتلأت كأن الركاب عفاريت خفية وهذا ما تريد » استقر بعيد عنها قليلا يفصلهما راكبان . جاء صوت المحصـل يأمر الركاب بالتحرك الى الداخل قليلا .. وكان صوت المحصل باب الولوج الى النقاش فدخله الجميع . « حديث الصباح وحديث المساء وحديث الدفـاع المدنى وحديث الاذاعة وحديث الرئيس وحديث البخارى ! .. يا أهل الله ماذا تفعلون بنا ! » . الأجساد تنبعج وتنحسر تحت تأثير اهتزاز الحافلة عند الدوران فى المنعطفات .. والحافلة مظلمة تسير متباطئة ، ويبدو أن الظلام كان مغيظا لأحد الركاب فهتف :

— اللعنة عليهم .. جعلوا الدنيا ظلاما فى وجوهنا .. متى سننتهى منهم ؟

— ربك كبير .. غدا نزور تل أبيب ...

— أسمعت البيانات الأخيرة ... ؟

— جيشنا انسحب الى خط الدفاع الثانى ..

« سائق الضحى المعتوه ! كل واحد هنا سـائق الضحى » .

انسحب قليلا من مكانه .. تحرك ودار حتى صار خلفها تماما .. امسك بيديه فى العامود المعدنى الممتد اسفل سقف الحـافلة ..

— يا محترم قل شيئا آخر ..

— أجل .. كلامه صحيح ..

هكذا قال شاب بهدوء شديد ..

— ماذا جاء بالبيانات ؟

استدارت الفتـاة قليـلا .. تطلعت اليه بعينيها بحنق

ظاهر .. انتفضت فى ضيق كمن ينفض عن نفسه غبارا نجسا .. ابتسم ابتسامة صفراء باهتة ..

— صدرت الأوامر الى قواتنا فى شرم الشيخ بالانسحاب الى خط الدفاع الثانى . وحتى البيان الأول الذى أذيع فى السـاعة الواحدة والنصف قال أن قواتنا انسحبت الى خط الدفـاع الثانى فعلا ..

— الا يجـوز أن تكون خطـة .. ؟ الحـرب خدعـة .. فر و كر ..

« كر وفر فى الحقيقة ! أجل .. الا يجوز أن تكون خطـة علامات الضيق هـذه ؟ الصيد الصعب دائما غال .. آه .. اين انت سيدة الصباح ؟ ساعة أن خلعت ثيابها ووقفت كعامود رخام أملس نسيه البشر..عندما قالت ستقتلنى..عندما وضعت فيها حقدى كله .. قالت .. هل انت شرقان الى هـذه الدرجة ؟ هل تكره النساء ؟ قلت عابثا ، أنا أكره اليهود ! وسمع الفضـاء قهقهتى فقالت الخائبة ، كلنا نكره اليهود ، لكن كلنا تائهين فى مصائبنا .. وعندما صرخت وأنـا أعض كتفها ودفعتنى محتجة قلت ما ألذ لحم النساء ! امتعضت لكنهـا كانت ساحرة فقلت لا يوجد أحد بالشاليهات المجـاورة ، اصرخى كما تشـائين »
وازداد ضغط الركاب فازداد ضغطـه على الفتـاة وهمس فى أذنهـا ..

— لا مؤاخذة ، الزحام شديد ..

ولم ترد .. زفرت .. « الحافلة مظلمة ، واذا حدث شىء أستطيع أن أنسل من خلفها . ومن سيصدق أنه فى هذه الظروف يفكر أحد فى هـذا الفعل ؟ » وازداد ضغط الركـاب فازداد ضغطـه !

— أجـل قـال البيان ان بعض مواقعنا اخليت من خط الدفـاع الأول ..

— لكن السبب كما قيل تجميع للقوات .. عملية عسكرية ضرورية ..

— ولا تنسى اننا اسقطنا ثمانى طائرات صباحا ..

— الطائرات كلها امريكانى .. الاسطول السادس دخـل المعـركة !

— لا .. لم يدخل .. لو حدث لقالت البيانات ذلك ..
هكذا قال ذلك الشاب بهدوء شديد أيضا ..

— عقلى يحدثنى انها خطـة .. والله خطـة .. الريس ذكى ..

— لكن البيـان الأخير قـال أن العدو أسقط مظـلات فى شرم الشيخ وناقلات جنود ..

— لو سمحت .. ؟

— متأسف .. جدا .. لكن .. الزحمة .. متأسف جدا .

تظاهر بالابتعاد عنها ثم ما لبث أن تمسك بموقفه « طالما تحدثت فقد وافقت . قليل من الصبر ويسقط العصفور .. ما اتعسها امرأة الصباح ! . هـذه تعطينى قيمتى .. نجاحى .. وهذه المرة لن يكون السائق ثرثارا وغبيا .. سيصرفون نظرهم عنى فى العمـل عندما تحل العـاشرة .. لديهم أحاديثهم التى لا تنتهى .. لحظة وتأتى محطة .. اهبط وستهبط .. أيـام الحروب تكثر الغزوات الجنسية .. ألم تعلمنا السينما ذلك ؟ أغلقت الكباريهات . يا للعنة السماء ..

— نركب تاكسى ؟

— افضـل .

انفتح باب الشاليه وحده .. الحجرة الداخلية ..

— لديك امرأة نائمة .. ؟ أنت سافل ..

— لمـاذا تتشنجين .. لن اتركك .. اصـبرى انهـا الخـادمة ..

« لمـاذا تركت المرأة هناك يا علام ؟ ! »

— خادمة وعريانة .

« قبلة عنيفة قوية تسقط قوتها وثيابها » .

— لكن أسقطت مقاتلاتنا خمس طائرات ميراج واثنتين لم نسمع عن نوعهما من قبل .. نوع اسمه نيو اطلس ..

— نيو ايه يا اخويا ؟

هكذا هتفت امرأة مندهشة :

— نيو .. أطلس ..

وزامت المرأة مستنكرة ومتعجبة معا .. استدارت الفتـاة بعنف وبكل ما تملك من قوة وغضب هائلين هوت بكفهـا على وجهه فى صفعة مفزعة اهتزت لها أركان الحافلة أمام عينيـه وصرخت :

— يا كـلب يا ابن الكلب مـاذا تريد أن تفعـل أكثر من ذلك .. ؟ !

التفت الركاب جميعا الى ذلك الصـوت الصاخب وتلك

الفرقعة المخيفة .. اجهشت الفتاة وانطلقت فى البكاء .. صار علام ذاهلا مبهوتا لا يلفظ بكلمـة .. ألجمته المفاجأة .. لم يحس بالنار المتصـاعدة فى صدغه من أثر الصفعة .. امتدت اليه يد رجل يقول له بصوت خفيض ..

ــ تعال هنا يا أستاذ .. تعال الى جانبنا ..

وسحبه من ذراعه ناحيتـه باتزان .. أوسـع له البعض طريقا .. لكن الشاب الهادىء الذى تكلم قليلا هاج وأرعد صارخا « يا نذل » وهوى على علام بلكمة شـديدة ، وكأنها كانت الثقب الذى اندفع منه الطوفان فحطم كل الحواجز واسقط كل الجدران، فما لبثت اللكمـات والركلات ان تهاوت من كل ناحيـة وماجت العربة وصرخت النساء تطلب تأديب الفاجر الخائن اللى تلاقيـه يهودى والا جاسوس ! .. تحول عـلام بينهم الى كرة صغيرة لا تخيب لكمة او ركلة ويصفونها بأبشع النعوت وتتقاذف فوقهـا كل أنواع البصـاق ! . والعجيب أن الحافلة الغاصة بركابهـا اتسعت لهذا كله ولم يعد احد فى مكانه فحيث تقف الكرة تجد الركاب جميعا وراءها لكمـات وركلات . انها لحظة فكر قصيرة جدا لا تدخل فى حساب الزمن التى تسنح للفرد فى مثل هـذا الموقف . وهـذه اللحظة سنحت لعلام فأدرك فيها انه صار جوار الباب الأمامى رغم انه صعد من الباب الخلفى فقفز لا يعرف ولا يعرفون كيف .. كان هنـاك بالناحية التى قفز اليها رصيف تقف جواره بعض عربات النقل التى لم يتسع لها جراج على الناحية الأخرى . وكان هنـاك « كوريك » مرفوعة فوقه عربة معطلة .. كان خلف العربات سور .. هـذا السور يحد مركز التدريب الذى يعمل به .. بعد العربات بأمتار قليلة توجد المحطة التى كان مقدرا أن يهبط بها !

- ٤ -

« أوتوبوس » ، « أوتوبوس » ، « أوتوبوس » .

هكذا كان الدسوقى يرجع كلمـة سر الليل فى نفسه . لقد استفز أنور عندما سأله عن الكلمـة مرتين قبل أن يغادر المركز الى موقعه بالجراج . واستفزه أنور بدوره عندما نهره قائلا عنه أنه « قفل » . لكن الدسـوقى بلع استفزازه حين شعر فى نفسه انه تحول الى قفل فعلا . بل وأحس انه ليس وحده فى هـذا التحول . كل واحد من زملائه صار « قفـلا » والمشكلة أن أحدا لا يصارح نفسه بذلك . وربما ليسوا هم فقط . قد يكون الشـعب كله تحول الى قفل كبير مغلق لا ينفتح لشىء . حتى أخبار سـوريا انقطعت ، وهى الشىء الوحيد الذى كان ينفتح عليه ! . ولمـا اطمأن انه استظهر الكلمـة ترك زملاءه وغادر الموقع .. بعد أن سار بضـع خطوات تعجب من ان أحدا لم يسأله الى اين ؟ لقد خرج على أوامر محسن بألا يغادر أحد مكانه خوفا أن يحدث له ما حدث مع خليل .. كيف لم يفطن زملاؤه الى ذلك وهم يرونه يتركهم ؟ انهم بالفعل أقفال مغلقة ! .. مر على موقع الجندى الذى قتل خليل .. لم يكن الجندى موجودا ولا أى من الجنود . صار الخندق فارغا .. راودته رغبـة فى أن يدخل اليه ولا يخرج ! .. ابتسم . أدرك انه لم يعد متزنا !

سأل نفسه كيف يدرك بعقله أن عقله لم يعد متزنا ؟ ضحك .. « تهرف يا دسوقى » . قرر أن يعود فيتجه الى منطقة القزق رغم معرفته بأن قوات من حرس الميناء تحاصر السفينة المحطمة . اطمأن على سجائره ! . هى وحدها التى ستفتح له الطريق .. يريد أن يشم رائحة اللحم المحترق .. رائحة الدم .. لقد احترقت سفينته .. أجل سفينته وحده دون الجميع .. أكثر من كانوا يعملون فوقها تلامذته فى المركز .. أليس مدربا بقسم « بدن السفينة » وهل السفينة الا بدن ؟ وهل يراها الناس بغير ذلك ؟ لا أحد يفطن الى الأجهزة والآلات التى فى جوفها .. ولو رأوها لنفروا منها .. البدن وحده هو جمالها .. هناك سيشم رائحة ابدان تلامذته ودمهم .. آخر ما تبقى له أن يشم ! تلامذته الذين احبوه وتخرجوا على يديه وفى كل احتفال لتخريج دفعة منهم كان يبكى وهم يتسلمون شهاداتهم .. لكن ماذا سيحدث لو لم تفلح السجائر . ؟ مناذا يقول عن سبب حضوره الى هذا المكان ؟ قد تسمح كلمة سر الليل له بالمرور والعودة .. ليستظهرها جيدا .. لابد أن يجلس فوق حطام السفينة .. داخلَ حطامها حيث الرائحة لاشك أكثر نفاذا .. كره كلمة السر .. « الليل سر وحده يا إخوتى فابعدوا عنى أسراركم » لكن التخلص من الكلمة يعنى موته .. وليكن .. أفضل له ان يموت جوار السفينة .. ولكنه تذكر تمام فابتسم .. « لو سألونى لماذا أتيت أقول جئت أبحث عن تمام ولكنهم لا يعرفون تمام .. لن يدلونى عليه .. ولن تتركنى الرائحة الا ميتا » واسرع فى سيره الى البوابة الرئيسية التى منها سينطلق الى حطام السفينة .. وحين اقترب من البوابة قال لنفسه « لن يسألك أحد عن شىء وربما لن تجد أحدا » .. وكان الظلام من حوله شديدا والأفكار تشتعل فى رأسه متضاربة ..

***

ترك راضى حجرة الدفاع المدنى بالادارة وصعد الى السطح .. وهناك فى أعلى بقعة حيث تشهق فى الفضاء مانعة صواعق وقف وسط الظلام .. أحس أنه يقف بين كتل سوداء من السحب .. البحر يمتد أمامه وتحته مساحات من الظلام الكثيف الغارق فى الخوف ! السفن البعيدة تلمع أبراجها البيضاء وسط العتمة . لكنها مظلمة .. الشركة تمتد تحته على الجانبين لكن عينيه تسمرتا فوق الكتل الصامتة السواد لحطام السفينة .. انه يرى كيف تلمع خوذات رجال الحرس .. يتذكر كيف دهنوا صلعة راس أحد الزملاء ذات ليلة باللون الأزرق ! .. يرى سيجارة مشتعلة تتحرك وسط الظلام .. قال فى نفسه يبدو ان صاحبها خلع الخوذة ! .. سأل نفسه هل هو حزين حقا ؟ وجاءت اجابته لنفسه أنه فقط آسف على أنه لم يكن موجودا ساعة الانفجار .. انه لم يحمل قتيلا أو جريحا .. لم يطفىء نارا أو ينقذ غريقا .. أما السفينة .. وطرد كلمة الجميلة من ذهنه لكنها الحت عليه ؛ فقد كان يعرف أنها ستنفجر منذ زمن .. منذ أعد نفسه للرحيل .. منذ لم يعد يشترى حلة جديدة أو يغير حذاءه هذا كالقيد من فرط الاصلاح والرتق .. عندما كان يرى اللحوم معلقة على واجهات محلات الجزارة فى اليوم الأول من الأيام المسموح بالبيع فيها كان يقول « اللحم نزل » ويضحك لأن اللحم لم ينزل معدته قط .. لم يشاهد افلاما على كثرة ما رأى أفيشات السينما وقرأ باب اين تذهب هذا المساء .. لم يخرج فى رحلة .. استراليا استراليا .. حلم الهروب والوجود ! لكن ما اقسى ثمن السفر .. نزهته الوحيدة إن يمشى على الكورنيش من الأنفوشى حتى سيدى جابر ! وكأنه يعذب نفسه بالمشى حتى لا يكرره ! يكره نفسه على أن يكره كل شىء بسبب انفاقا .. استراليا حلم الهروب والوجود .. لكن ما اقسى

ثمن السفر .. حتى الاعـداد الأولى لمجلة « الطليعة » باعهـا
لمحسن رغم أنه لم تعد له حاجة بها بعد ان قطع قراءته لها بعد
عامها الأول .. وباعها له بنفس الثمن .. قال لنفسه أن محسن
لن يقاوم فلن يساوم .. وهو غير نادم على هـذا العمل الصغير ..
وعندما يعود سيكون غريبـا لكن من موقع أعلا .. لكن ها هو
يأسف لأنه لم يكن موجودا ساعة الانفجار .. والآن لم يعد هناك
مبرر لوجوده .. انتهى كل شيء .. حتى المشاركة في اللحظـات
الأخيرة لم تتح له .. لكن يقلقه كيف سيعلن ذلك لهم خاصـة
وأن محسن يتهالك ساعة بعد ساعة وتمـام لم يعد .. تمام ..
آه .. وجلس راضي فوق السطح .. وضـع رأسه بين ركبتيه
وقرفص .. السفينة وتمام خليل ترى على من الدور الليلة ..
قلبه يعلن أن الليلة هي السابقة .. نهض وهبط واتجه الى
التليفون .. رفع السماعة يطلب محسن .. جرس التليفون يرن
على الناحيـة الأخرى لكن أحدا لا يجيبه .. طلب للمرة الثانية
ولم يرد عليه أحد .. طلب للمرة الثالثة بعد فترة قليلة ولم يجبه
أحـد .. فكر أن يذهب الى المركز بنفسـه .. تذكر الأوامر
بألا يغادر أحد مكانه .. طلب للمرة الرابعـة ولم يجبه أحـد
كذلك .. أحس بقلق شديد على تمام وأن استراليا بعيدة جدا
أكثر مما توقع ! ..

***

تمدد الشحات فوق سرير العيادة المجاورة لحجرة العمليات
بالمركز . تمنى لو غاص في الفراش وضـاع ! لم يعد يريد أن ير
شيئا .. لو ساعدته دموعه ووضعت سـدا ساخنا بينه وبين
الأشياء ! لقد طار اليه نبأ السفينة من منزله بالأنفوشي .. طير
عمال البناء الخبر في الحي كله .. صعد به اليه البواب . ما أفظعك
من بواب ! وكان يبكى .. لم ينتظر موعده وحضر الى المركز ..

جاء يرمح كرجل شلت ساقاه سنين طويلة ثم انطلقتا فجأة ..
كان جسده كله يهتز من فرط الجرى ورأسـه يهتز من أشياء
أخرى .. آلام أخرى .. مطـارق أخرى .. عندما وصـل
الى المركز لم يجد شيئا يقوله .. دخل الى العيادة وتمدد فوق
السرير .. « كأنه قضى علينا أن نظل قابعين نثرثر والمستقبل
ينقلب أمامنا الى مخاضـه قبيحه » جملة وحيدة قالها بصوت
غير مسـموع .. ثم .. ثم .. أين تمـام الآن ؟ سـؤال صار
معلقا فوق عنقه كالمقصلة .. وصـورة السفينة .. صـورة
السفينة .. أنه يعرفها أكثر من غيره .. كان يمر على تلاميذه
بها كل يوم وهم يقومون بتبطين جدرانها من الداخل بالعوازل ..
يعرف كل غرفة فيهـا وكل ممر .. يعرف أسـماء تلاميـذه
ويحفظ وجوههم .. يميز أصوات ضحكاتهم .. يعرف قوتهم ..
جديتهم التي اكتسبوها منه .. يعرف مشـهد التدشين الذي
لم يتم ويحفظ كل تفاصيله منذ ترفع الاعلام قبل الموعد بأسبوع
على كل مكان في الشركة وفوق السـور .. ومنذ تنتهي آخر
عمليات الطـلاء .. وحتى يمسك الضيف الكبير فوق المنصـة
بزجاجة من ماء النيل مربوطة بحبل رفيع بأحد الصـواري ..
وحتى ينتهي عامل القطع من فصل الاسطوانة المصمتة التي تمسك
السفينة بأرضية « القزق » فتنزلق السفينة فوق الشحوم ..
ويترك الضيف الكبير الزجاجة من يده لتندفع الى جسم السفينة
فتتحطم .. تأخذ السفينة عمادتها من مـاء النيل .. من أصـالة
المصريين القدماء وتشوفهم النادر .. كان مقدرا أن يكون جمال
عبد الناصر هو الضيف الكبير . ومن يكون غير جمال عبد الناصر؟
لكن هل كان هـذا صحيحا .. ؟ هل تحطمت السفينة لأن في
الأمر خطأ ما .. ؟ ويقفز السؤال عن تمـام الى ذهنه مع كل
صورة تترى عليه .. يكبر السؤال ويتمنى الشحات لو غاص في
الفراش وضاع .. يتذكر أنه ركب ثلاث ترامات حتى وصـل

الى المركز . ان الركاب كانوا يتحدثون عن السفينة التى ضاعت..
يتحدثون عن البيانات العسكرية ويعودون ليتحدثوا عن السفينة..
عن الطريق التى كانت بدأت تزدان باللافتات للرئيس .. يتذكر
أنه كان يجرى داخل الترام ولا يجلس ! وأنه عندما كان يتطلع
وجوه الركاب كان يبحث عن تمام .. تمام .. انه يلح عليه
كثيرا .. ولابد يلح على الجميع .. تمام هادىء الابتسامة ..
الذى ذهب منذ .. منذ .. لم يعد يعرف حساب الأيام ..
السنين .. لم يعد تمام وكل ما يحدث مؤامرة لنسيانه ..
ويبحث عن ابتسامته الهادئة فلا يجدها ويدرك أن المؤامرة عنيفة..
يظل يكتب بأصبعه تمام .. تمام .. ويكتشف أنه يكتب على
الهواء .. يتمنى ان يبتلعه الفراش حتى النهاية ..

كان صقر اكثر الناس احتفالا منذ شهور بتدشين السفينة..
علق كل مطالب زوجته عليها .. كان اكثر المدربين همة فى
فى متابعة تلاميذه وهم يمدون الأسلاك الكهربائية أو يقومون
بتركيب الأجهزة . وها هو يجلس الآن فى حجرة الدفاع المدنى
بالمركز ومعه محسن وأنور ووفا صامتين .. يفكر صقر كيف
انه لم يسمع صوت الانفجار ولا زوجته رغم انهما يقطنان جوار
الشركة تماما . كيف انه لم يدرك أن المنزل اهتز بعنف من أثر
الانفجارات .. كيف لم يعرف بالانفجار الا عندما حضر الى المركز
فى موعده ومن زملائه .. صقر يدرك انه صار اخيرا خارج
الدنيا .. ينظر الى وفا ببلاهة فيجده ينظر اليه نفس نظرته ..

يقول صايغ لنفسه بعد ان حمل كرسيا الى فناء المركز
وتطلع الى المنازل المواجهة وشاهد الضوء الأحمر يتسلل من
وراء ستارة النافذة ، نفس النافذة التى يراها كل ليلة ..
« أنه كان جنديا محملا بالأسى والا لماذا كان بين الحين والحين

يرفع بندقيته يصوبها الى شىء مجهول فى الفضاء ! ؟ لابد ان
احساسا بالمطاردة يلاحقه .. ربما احساسه بأنه جندى وبعيد
عن المعركة .. كان يحدثنى وروحه هناك .. عندما وجد
فرصته كانت مواجهة عبثية الايقاع ..

س : أليس لديك تفسيرا لسلوكه ؟

ج : كان يحدثنى كثيرا عن عشرات الشباب مثله يقضون
أوقاتهم فى الحضرة طوال الليل .

الجندى وخليل . التقى لغز بلغز فصنعا حقيقة أوضح من
فلق النهار فى عمق الليل ! » ويقول صايغ لنفسه .. « اننى
نشط جدا الآن .. لايمكن أن يكون هذا نتيجة الساعات الثلاث
التى نمتها بعد عودتى من مكان الانفجارات » .. ويتساءل
« لماذا نسيت تمام تماما ؟ لماذا لا اذكر الا الجندى » ..
ويقول صايغ لنفسه فجاة .. « لماذا لم أمنع الرجل صاحب
الضوء الأحمر أو أبلغ عنه ؟ » ثم يذكر كلمة الجندى الأخيرة
فيقول لنفسه وهو ينهض « الليلة اخبرهم بقرارى » .

* * *

لا يستطيع محسن أن يرى السفينة الآن .. قلبه يهفوا
اليها حزينا لكن لابد أن ينتظر حتى الصباح .. لكنه الآن لايريد
أن يمسح لذلك الحزن الجديد أن يسيطر عليه .. لايريد أن
يعترف لنفسه أنها النهاية رغم انه يعرف ذلك ويراه .. لايريد
الحسرة على تعب الجسم وكد العقل وتبخر فرصة الانجاز
والمجد .. انه يبحث عن قوته المستباحة عله يستطيع أن ينفثها
فى كيانه من جديد .. لو ترك نفسه لزكريات أيام الكفاح ..
عندما كانت الأرض خرابا وعربات التراب تردم البحر .. وهو

وزملاؤه قبل ان ينتقل الى التدريب يجوسون فوق الأرض الوعرة يساهمون فى صب القواعد الخرسانية .. يقيمون عليها الآلات الضخمة .. يحركون الروافع الجبارة لتهبط بالآلات فوق القواعد .. يسهرون حتى الصباح ورجال البناء الصعايدة يهرولون فى فرح بالخرسان يقيمون القزق الذى ستبنى فوقه السفينة.. الذى انفجر ! آه .. ليالى الصيف وليالى الشتاء وقلة الخبرة والأدوات والصبر والتصميم والخبراء السوفييت والانجاز فى الموعد تماما .. لو ترك ذلك كله يتساقط داخله سيتساقط .. انه بحاجة الآن أن يفكر بهدوء وها هو قبس نورانى يقفز الى روحه . فينسى مقتل خليل وتحطم السفينة والموت المجانى على الجبهة .. انه يريد الآن أن يعرف شعوره الحقيقى نحو أنور الجالس جواره فى صمت مرير .. هل أنور فعلا مشكك يبذر السموم فى كلامه ؟ لماذا لا يكون هناك بعض الصدق فى كلامه ؟ انه على الأقل حدد لنفسه منهجا وطريقة فى التفكير .. اما هو ، محسن نفسه ، فلم يزل مشتتا .. هل يكفيه انه يحب زعيمه ويحلل خطبه ويبرر لما يحدث وارؤى المستقبل .. انه لو دقق لوجد نفسه منحازا الى أنور وهو لا يدرى .. فى أنور بعض الحدة يمجها الناس .. لكن متى كانت الناس تعى الظروف وطموح الشخصية الوحيدة ، ! ؟

كيف نسى محسن ذلك ؟ لو لم تنفصل الأعمال عن الأقوال فقط ! ؟ .. والدين .. آتون والاضطهاد المسيحى وآلاف المآذن ؟ ما أفدح التحدى .. لكن .. ايضا ما أفدح أن توضع الأمور فى غير اماكنها .. كثيرا ما يكون الاتهام تكئة لعجز صاحب الاتهام .. والله ليس عدوا شخصيا لأنور .. لماذا لا تسمعه الناس اذن ؟ .. والانفعال والحدة هما شيمة للشعوب المتخلفة ! وانور فى قلب شعب يعيش على بطنه .. وبطنه ضامرة من فرط الجوع .. وانور يريد أن تتحرك بطن الشعب تطبق على صدره

بالغضب فينفثه بالثورة .. طريقنا طويل يا أنور .. اهلنا منطوون علمتهم الطبيعة والحكام أن الخروج عن الوادى الضيق مغامرة فاشلة حتما .. وعلمتنا أساطيرنا ان الطموح خيال . والا لماذا هذه الرحلات الخيالية نحو الشمس أو العالم الغربى ! وما سر هذا الشموخ المثاث فى رؤوس اهراماتنا ومسلاتنا .. أليس اشباعا خياليا لاعادة التوازن الى النفس المكبوتة .. حقيقى ارتباطنا بالطين وعجز طموحنا يا أنور فمعذرة .. من لى بقلب المعادلة .. من يا انور وأنت واحد وانا مشدود الى ما هزمنا ! معذرة يا أنور ليس لنا الا الحزن .. نحن أول شعب دول .. اكثر ما تقوله يا أنور عن الحرب والسياسة صحيح .. لكن معذرة فأنا لا أعرف لماذا أنا منشد بعيدا عنك .. حتى الآن على الأقل .. لكن لعلك الشاطىء الذى أرسو عليه .. آه يا أنور .. لعلك الشاطىء الذي أرسو عليه رغم أن مرافئنا بعيدة .. ويشعر محسن ببعض العزم يتخلل روحه فتكبس عليها صورة تمام المفقودة .. لكن وفا يتكلم فينقذه ..

***

لم يسأل أنور نفسه لماذا ما يزال يحتفظ ببعض القوة حتى الآن ؟ والأكثر من ذلك انه يستطيع الآن أن يتذكر صديقه القديم . أحد رواد المتقلات الدائمين منذ مظاهرات الطلاب بعد الحرب الثانية .. صديقه الذى اصبح الآن تاجرا له شأنه فى ميدان المنشية .. صار له اعوان وتباع وفريق من المهربين يهربون البضائع من ليبيا عن طريق السلوم ومرسى مطروح فالاسكندرية .. يشعر بحنين طاغ اليه الآن .. الى زيارته .. انه الرجل الذى لقنه الدرس الأول والدرس الأخير .. بث فيه روح الثورة فى البداية وروح التاجر فى النهاية ! ماذا يحدث

لو ذهب اليه غدا ؟ لم يعد له مكان هنا .. ولم يعد يجديه نفعا العمل بتنظيمات الدولة .. بل سينفرط عقد التنظيم .. سيصبح حبة رمل فى صحراء واسعة .. وها هو محسن ذلك « العيل » يتولى القيادة . ولكن هل هذا زمن الخلاف .. لقد ضاع الوطن .. هل يغنيه أنه حذر .. لقد ضاع الوطن .. لكنه يرى السنين العجاف قادمة بحكومة لا تبقى ولا تذر .. انه بالفعل لم يكن يحب أن تنتهى الأمور هذه النهاية .. انه وطنه .. سكين تدور فى قلبه .. وطنه .. وطنه .. وطنه .. يا سيد بشارة .. هل لديك حكمة جديدة .. ؟

قال وفا باستنكار :

ــ مجلس الأمن ..

وكان قد أشعل الراديو ..

« ويقول نص القرار .. نظرا لأنه بالرغم من النداء الموجه للحكومات المعنية بالأمر باتخاذ جميع الاجراءات لوقف اطلاق النار ووقف جميع العمليات العسكرية فورا فى الشرق الأوسط ، لا تزال العمليات العسكرية مستمرة فى المنطقة . وخوفا من أن يخلق استمرار العمليات الحربية موقفا أكثر تهديدا فى المنطقة ــ السخرية تقفز على شفاه الجميع ــ يطالب مجلس الأمن الحكومات المعنية بالأمر كمرحلة أولى بوقف اطلاق النار ووقف جميع العمليات العسكرية ابتداء من السابع من يونيو ١٩٦٧ الساعة الحادية عشرة بتوقيت القاهرة . ويرجو مجلس الأمن السكرتير العام للأمم المتحدة أن يفيده بصفة عاجلة ومنظمة عن الموقف أولا بأول » وخرج وفا عن الانكسار الى الحيرة وقال :

ــ البيان لا يطالب بالعودة الى الأماكن التى كانت فيها

القوات قبل الحرب .. انه احتلال سافر .. سندخل فى متاهات واسعة ..

ــ المندوب الأمريكى لابد صال وجال ضد قرار من النوع الذى تريد ..

هكذا قال صايغ وهو يشعر بأن أشياء كان ممسكا عليها تخرج من بين أصابعه .. ثم قال محولا الحديث وكان قد دخل عليهم مع كلمات بيان مجلس الأمن .

ــ هل سمعتم عن توزيع البنادق على الشباب .. والفرق التى تأخذ أماكنها الآن على الكورنيش . هناك احتمالات انزال جوى على الاسكندرية ..

وجلس وهو لا يدرى ان كلامه هذا حول الجميع الى تمام .. لكن وفا صرخ :

ــ وماذا يعنى مجلس الأمن بكلمة يرجو .. سندخل فى زمن الرجاء ..

لكن انور كان قد صار نادما لأنه تذكر كيف هزأ من تمام عندما ابدى رغبته فى الذهاب من أجل السلاح فقال له « لو ذهبت ستعود فى الحرب الرابعة اذا قامت » ورأى تمام تائها فى دهاليز معتمة تصوب اليه البنادق من كل ناحية .. وكان محسن قد أحرقه التوق الى تمام .. ولعن السلاح .. وتساءل اى أحداث قاسية انسته صديقه القديم .. ذلك المعدن المريح من البشر .. المبتسم فى دعته المغلق على الآلام .. اما صقر فعندما تذكر تمام تذكر خليل فقال :

ــ الا ترون اننا نسينا خليل تماما ؟

فقال صايغ :

ـ أريد أن أحدثكم بشيء ..

ولم يكمل .. سد الباب جسد ضخم ألقى صـــوته الخشن السـلام عليهم .. انه الخفير .. كان خلفــه رجل غريب .. قــال الخفير :

ـ هذا الرجل حضر ومعه محفظة الأستاذ علام .. يقول انه وجدها جواره ..

ألجمتهم الدهشة .. ثم فتحت افواههم لتدع الطريق أمام أنفاسهم كى لا يختنقوا !! . قال الرجل الغريب :

ـ وجدنــاه غارقا فى الدم وراســـه مشقوقة نصفين جوار احدى العربات ..

ومع كلمات الرجل وقفوا .. ومع آخر كلمــة كان صقر فقط هو المتأخر عن اللحــاق بهم .. لكنه لحق بهم .. والى هدفهم طاروا كأفراخ فزعها عقاب .. حين كانوا يقفزون الباب الخارجى للشركة كان تليفون الغرفة يدق وحيدا وكان على الناحية الأخرى راضى يموت قلقا ..

ما لم يسمعه الركاب من علام

وهو بين أيديهم وأرجلهم

وقبل أن يموت

يا ديدان الأرض ماذا كنتم تبغون ؟ أن آكل من عفن الغائط ؟ لماذا والدنيا حولى مفتوحة .. أنا علام ذو الرأس الثاقب واليد الطولى والباع الممدود ! ؟

***

لقد صرخ ابى « ضعنا » وبكت امى تتعلق بأذيال الغيب « وارباه » . لكن الله كان بعيدا .. جالسا فى قاعات الأرشيف سمينا ونظارته سميكة سوداء ويقول : ماذا افعل ؟ هذا حكم القانون ! وظل أبى يصرخ بالحنق المتلوى فى الاحشاء .. الغد بعيد .. ها قد طوفت كثيرا وما أكثر ما رأيت عينا وما سمعت اذناى فى عمق الصحراء وفوق تلال الأحجار .. « طز » رد الكون على أبى وردد . وظل يصرخ لماذا نبنى مجد الغير ؟ والأجر زهيد والأفواه غبية والعمر قصير ومات فلم يعد فى العمر بقية .

***

ابواب الرزق اتسعت كالمومس .. هذا مشروع للغد وتلك صناعة من أجل الأجيال .. ان أرضى ففى الأمر سذاجة اذ لماذا أبدأ من حيث بدأ أبى الاحمق ؟ والغير لا يرضى .. من يبنى المشروع لا يرضى لا يعرف معنى الغد ولا المستقبل ولا الأجيال .. لم أدرك شيئا قبل الثورة .. كنت صغيرا لا أعرف الا الأكل ولعب النحلة والبلى فوق الطين .. ومن يبنى المشروع لا يعرف كلمة ثورة فلماذا تسألوننى .. تجار الأنفار هم الأبرار هكذا علمنى السيد المسئول .. تعطينا ونعطيك والأنفار

قطط عمياء ولن يفتح احد عينا عمياء ! خفت مرة واحدة فقالوا
انا نتوسم فيك الخير .. تتسلم وتوقع والليل براح يجمعنا
والنهار غباء مطلق فلمعت فى عينى أقراص شموس تغرى وتتلألأ ..

***

هيا .. هيا .. لا أستطيع ان اضحك ولا يرانى أحد
ابتسم .. أين انت يا أبى مطوف المحاجر والوديان .. ها هو علام
لم يتشرد أو يتعرى .. يدخل صالونات رحبة .. ليل فى
الكيت كات والثانى فى المونت كارلو والثالث فى الروترفو والرابع
فى فندق فلسطين ! تصور ! ؟ والخامس فى البلاى بوى والسادس
فى مكسيم ورتاح السابع مثل الله . لكن تأتيه العاهرات حتى
المنزل .. وان أفلس يوما لأن سيد الأنفار فى ريفييرا الطليان
يمضى الليل فقيرا فى اتينيوس الحزين !

***

قال الحقد فى عيونكم أرجع يا علام .. يلقونك لقمة سهلة
فى يد القانون .. هم أصحابه .. سدنته .. تجاره .. وما أنت
الا امعة مفتون .. ها ها .. الله .. لا أستطيع أن أضحك ..
أكان لابد أن أهتف بكم يا غباء التاريخ المتراكم .. الأمعة من يظل
ينتظر السلوان .. من يبحث فى الظلمة عن ليلة قدر ..
ما أشرف كلمة لص وسادن ! سادة الجيش سادة الخرسان
والآلات يحققون النصر دائما على الأنفار ؟ قالوا منذ البداية
سناخذ وسنعطيك فلم الخوف ؟ .. ولم الحقد والأمر
نهار . ؟ دعونى من ثيل أمانيكم وكوابيس أحلام اليقظة .. !

***

من منكم يرفض أن يفعل مثلى .. قولوا عجز .. جبن ..
غباء .. لكنى اسخر منكم فوق الكأس وفوق الفم وبين

الأفخاذ .. ها ها .. ى .. لا أستطيع أن أضحك .. تريدون
اليوم تحطيم الاغلال .. دحر العدوان .. أمقتكم .. ما معنى
الدفاع المدنى الآن .. فات الوقت .. أنا لص رعديد وأفهم أنى
لص رعديد .. أحب أن أسرق اللصوص ولا أحب العصيان !

***

وتضربوننى ..

ها ....

لا أستطيع أن أضحك .. ولا أتألم ..

تضربوننى لاننى أردت أن أغزوها فى الأتوبوس .. من منكم
لم يغزوها فى عين خياله .. يا أهل اللعنة .. كلام أياكم وصور
خادعة الاحلام .. مقطوعة أيديكم التى تلكمنى وفارغة رؤوسكم
التى تنطحنى الآن ..

***

يا فقراء الأرض ..

يا عمالها وفلاحيها الذين يرتفع من أجلهم العمران ..

لا عمران ..

أنا موجود .. غيرى موجود مثلى ..

وأنتم لا ترون .. الا ترون .. ؟ ها ها .. لا أستطيع أن
أضحك .. سيغزوكم العالم من كل الأقطار .. وانتظروا شر
الغزوات .. غزوتكم منكم .. انتظروا يوما تتحقق فيه نبوءة الذى
لن يموت .. نزيل البارات .. سوط الشهوات .. أكبر من
يستطيع ان يجوع خمرا بالدن !

أنا الذى تعلمت الصدق من الأنبياء .. لصوص الحرب والسلام .. عاهرات الكورنيش .. قوادى الملاهى .. ستظل افخاذكم مفتوحة للطامعين .. الظامئين .. للصوص .. فرسان الليل الملثمين .. سدنة القانون والتشريع .. زائرى الفجر المرعبين .. كل من يستطيع بالحق الأعوج أو بالزور أن يكون مقاولا للأنفار ..

هكذا أقول ..

انا علام ذو الرأس الثاقب ..

آه .. لا أستطيع أن أبتسم ..

واليد الطولى ..

ايها الدم الذى ينبثق من فمى دعنى اقول الكلمة الأخيرة ..

والباع ... المد ... و ... د ...

التاسع من يونيو

كيف ساد الجبهة الهدوء ! ؟

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

- ١ -

« اليوم يقول الرئيس بيانا فما عسى أن يقول ؟ كان الأمس رهيبا فكيف يكون اليوم ؟ لقد توقف العمل بالشركة ومأساة علام صارت دوارة بين الورش والمكاتب .. تتوارى أمام عمق الاحساس بالكارثة وتعود دوارة بين الورش والمكاتب ! . ولما تزل منطقة القزق محاصرة بالجيش والبوليس وأنا هنا بينهم محاصر بالهم ! الحيرة فى كل شيء واللعنة على الدول الغربية والعربية معا صارا حديث النقمة للعاملين .. وكل شيء يتلون اليوم بلون ليس له اون ! لون محسوس يفقأ العين لكن أحدا لا يستطيع ان يحدده .. أسود ! ؟؟ ربما ، ومن نوع لم يعرفه السواد ! نحن نتساقط .. الجيش يتساقط .. الاذاعات الأجنبية تقول كلاما رهيبا والناس واجمة ساخطة مغيظة **تموت .. ما هذى** المحنة ؟ من لى بالقوة لأفهم واقاوم ؟ .. من الذى يلعب أدوارها دراما الفساد والموت المجانى ؟ الجيش أم الشعب أم هى الدول الغربية أم روسيا ومن الذى أطلق يد الغرب فى الشرق ؟ ما هو شرخنا لنصير كبش الفداء فى آلام الكون هذه ؟ أم هو الله تخلى عنا ؟ ولماذا اذا كان فعل ! ؟ وما نتيجة هذا كله تلك التى يزحم دخانها الهواء ونتعامى عنه بأمل ضعيف غبى ؟ ومن يستطيع ان يوائم بين عبىء كبير وعبىء اكبر ؟ وأين ضاع تمام ؟ هل ضل طريقه أم يأخذ الآن طريق العودة أم لحق بخليل وعلام

وبنا ! .. تشهد علينا آيات السماء والأرض أن كل شيء غامض غير محدد الهوية ونحن نتحدث فنموت .. نأكل الطعام زعافا وصرنا بلهاء حبالى بالهم الثقيل .. واليوم .. اليوم يقول الرئيس بيانا فما عسى ان يقول ؟ ولماذا لا نسمع أن الجيش تقدم الى النقب ؟ لماذا لا نسمع ان كل الأخبار التى ترددها الاذاعات الأجنبية زيفا ووهم رعديد .. يا قلبى .. يا قلبى المفزوع بين الضلوع تأتيك بشارة الأيام القادمة فى لحظة ضعف قاتل فى رجل يدعى سندباد .. يخطو فوق الوهاد والنجاد ويرقى جبال السم والعنت ويطفو فوق بحار الدم والآلام يجلب لك منديلا معصورا بدم الأعداء معجونا بريح النصر .. أرضنا تضيع ونحن ها هنا قاعدون والسندباد لحظة ضعف قاتل .. السندباد خديعة ومؤامرة ! آه .. لحظة ضعف قاتل وخديعة ومؤامرة .. ماذا عساهم يقولون الآن وفيم يفكرون ؟ ضاع ليل امس الأول بين البوليس والمستشفى وها نحن اليوم فى الضحى وعلام لم يزل سريرا فى مشرحة ينتظر العائلة .. ها نحن اليوم وقد صلبوا فيه المسيح ! جمعة حزينة أو يتيمة بها ساعة نحس أو ساعة يقبل فيها الله الدعاء من العباد ومضت على يوم الاثنين دهورا كاملة ! لا استطيع ان أتحدث اليهم بأمر .. لو نموت فجأة الآن ، حينئذ لا نحزن ولا يقتلنا هم .. ها هم جميعا حولى صورا باهتة تنتظر ان يسقط فوقها سقف الغرفة . فيم يفكرون ؟ الجيش أم خليل أم علام أم تمام أم شعبنا الموحول .. ؟ أم تراهم يقولون من عليه الدور ؟ وأى دور بقى ؟ أيتذكرون البداية وغبطة الثقة أم يتأملون النهاية وسحق الهزيمة أم تخلف الأنصار ؟ راضى خانته قوته وأعصابه وانصرف من المشرحة الى منزله كما قال .. ربما هو الآن هائم فى الشوارع .. شوارع استراليا صارت بعيدة يا راضى .. صارت قريبة يا راضى بين يديك ! أكان لابد من الهزيمة كى تقترب استراليا ؟

وصايغ .. صايغ الذى عاش بيننا لا ندرك انه فلسطينى .. ها هو يختفى فندرك أنه لم يك مصريا ! .. قال لى لماذا كنا فى حاجة الى الهزيمة لندرك الأغوار ؟ وقال لى لماذا كنت فى حاجة الى الهزيمة لأدرك الأغوار ؟ وقال لى لماذا كنت لا أدرك ؟ وسكت .. كدت أقول لماذا كنا فى حاجة الى الهزيمة لندرك أنك فلسطينى ؟ وكدت أقول لماذا كنا فى حاجة الى الهزيمة لنعرف أنك لست مصريا ؟ وبكى صايغ .. واختفى صايغ .. وها هو الدسوقى يبكى منفردا فى ركن من الحجرة . لماذا تبكى يا زهرة فريدة الاريج ؟ .. حزينة مهزومة ضاحكة على بؤسها ، راضية بما يمر عليها من تصاريف العواصف والرياح والنحل الغبى يسطو على رحقيها الأزلى ! »

وقال الدسوقى والدموع تترى فوق خديه فأوقف سيال محسن المخزون :

— اذاع راديو دمشق ان الحرب ما تزال فى بدايتها والنصر لمن يصمد ..

وظلوا صامتين .. وظل الدسوقى يحلم ..

فجأة رأى أباه ، عندما كان يأخذه ، فيجلسه على حجرة ، أما شاعر الربابة ، يحكى له عن مغامرات عنترة بن شداد ، وسيف بن ذى يزن ، وأبى زيد الهلالى .. كان أبوه يحب الهلالى أكثر ، وكان هو مثل أبيه ولا يدرى لماذا . يتوه مع شاعر الربابة وهو يقص له عن أبى زيد الهلالى سلامة .. عن صحراء نجد ، وكيف نزل عليها جفاف ، وحلت بها مجاعة ، فصارت القبيلة تضرب فى الأرض حتى تونس بلاد الزناتى خليفة .. ويقول الفتى أبو زيد الهلالى سلامة .. يقول الفتى أبو زيد الهلالى سلامة .. آه .. ماذا كان يقول ؟ بئس الحوادث تلك التى

تنسينا أجمل الأيام .. ماذا كان يقول يا شاعر الربابة الضـائع
بين سنين الحل والترحـال .. يا شاعر الربابة جواب الآفـاق
ها نحن وقد نلنا حظا من التعليم .. تعلمنـا أن العدو بغيض ..
أن الاستعمار يقهر .. الاستعمار مستغل .. الاشتراكية كفاية
وعدل .. وتعلمنا ، واآسفاه .. أن العرب أخوة ووحدة ..
وكان الدرس التالى مباشرة عن فلسطين السليبة والخيانـة !!
وتعلمنا أيضا ان الله موجودا ! .. يا أبا زيد .. هل كنت تعرف
ذلك كله ؟ .. لمـاذا يا أبا زيد كنت قويا تحـارب الجنون الحمر
وترد الكيد وتعيد الحق للمظلوم .. أيها الفتى الأسمر هل أصرخ
اليك ؟ مـاذا أخذنا من علم كسيح ؟ جلسنا ننتظر ان يتحقق
شيء .. لم نحـاول أن نتقدم خطوة .. وانت ؟ من أجل الموت
سرت بقبيلتك حتى تونس .. تحارب وتسالم .. تسير وتنبح ..
لكننا حاربنا الهواء .. وأنخنا الى الأرض .. تعلمنا ولم نتحرك ..
كنا نتعلم قاعدين .. يا أبا زيد .. لا يعرفك الا شاعرك الجوال ..
اما أنا فامعة .. أبكى الآن كالنساء ويهتز كرشي ، وها هم قابعون
كأحجار الهم ... »

وعاد الدسوقى يقول :

ــ النصر لن يصمد .. لن يملك أن يلقى قوات جديدة كلما
تطلبت المعركة ذلك ..

واستمر فى البكاء فصرخ فيه أنور :

ــ لمـاذا تبكى كالنساء ؟ . لمـاذا تضعفنا ؟

ووقف أنور فاذا بالشحات يقف امامه ! جذبـه صقر من
ذراعيه ليجلسـه ..

برق فى ذهن الشحات خاطر .. « منذ بداية المعركة ونحن

جميعا نتشاجر .. ومنذ البداية وأنـا أفرق بين المتشاجرين »
وحاول ان يفهم ما يعنيه ذلك .. ولكن .. وظل محسن يرقب
المشهد ولا يتكلم .. تحركت عينا الدسـوقى تنظران الى أنور
بهدوء ذى مغزى كأنما تقولان « وما يجديك أن تتهجم على ..
وما يجدينى أن اتهجم عليك ! » .

وقال يحيى الذى لم يتخل عن هدوئه حتى الآن :

ــ مازلت مؤمنا أن فى الأمر خطـة ما .... أن المعـركة
لم تبدأ ..

هتف الدسوقى كأنما شجعه كلام يحيى :

ــ راديو سوريا أكد أن النصر للعرب فى النهاية وللتفوق
البشرى المتمثل فى قوة مائة مليون عربى .. وظل يبكى .. ودموعه
صارت أسرع من كلماته .. وصـوته صار نشيجا .. وكادت
الدموع تطفر من عينى محسن .. تحول الدسوقى الى نبع حزين!
وقال مخنوقا باليأس :

ــ هل سنظل جالسين .. نحن لا نستطيع أن نهبط الى
الورش ولا الى القزق ولم تعد لنا فائدة .. ماذا ننتظر .. كل
شيء انتهى ..

اشعل أنور الراديو .. كانت الأغـانى الحزينة تتوالى ..
صـوت يغنى لمصر .. تخـايلت السخريـة والغضب على شفتى
أنور .. كظم محسن غيظ بركان .. شعر انه سيفشل امام اى
استفزاز من أنور .. قال صقر :

ــ اختفى صايغ دون وداع ..

وقـال وفـا :

ـ لم تعد هنـاك فائدة من عودة تمام .. ولعله اكتشف ذلك فلم يعد ..

واذا بأنور يطرق المكتب بعنف ويهتف :

ـ ومن هو تمام ؟ وما الذى ادخله فى هـذا الأمر ؟ ثم ما معنى السلاح الذى ننتظره ؟ لقد فشلنا حتى فى أن نمد إجل الحرب .. منذ بدات المعركة ، وقبلهـا ، ورايى ان الأمر لا يزيد عن لعبة وأن دولة اللصـوص تنهار أمام اللصوص الأقوى .. ـ وتحول بالحديث الى محسن ـ وانت يا سيد محسن .. هل ستوزعنا على مناطق الدفـاع المدنى ؟ أما زلت مؤمنا بالدفـاع المدنى ؟ ضاعت البلد .. الجيش يدمر فى سيناء ..

استدعى محسن آلهة الكون ليحفظ توازنه وقال :

ـ أنـا اعرف اننا فى كارثة عظيمة .. ولكن .. ـ وضغط اسنانه ـ .. ألا يمكن أن تصمت ؟ تتركنا فى حالنا وتصمت ؟

وانتهت الأغنيـة .. بدأ مارش عسـكرى .. صمتوا فى يأس .. جاء صوت المذيع منكسرا فيه رغبة التراجع ..

« أتمت قواتنا المسلحة أمس انسحابها الى الضفة الغربيـة من قناة السـويس .. وبالرغم من ايقاف اطـلاق النار الذى التزمت به الجمهورية العربية المتحدة وابلغته الى مجلس الأمن أمس فان قوات العدو الاسرائيلى الذى تسانده قوى الاستعمار مازالت حتى الآن تواصل هجماتها ضـد قواتنا غرب القنـاة .. كما ان الغارات الجوية على منطقة قناة السويس مازالت مستمرة فى حين تواصـل قواتنا المسلحة اداء واجبها المقدس دفاعا عن أرض الوطن » .

طأطأت الرؤس ثقيلة خاويـة تدوم فى خـلاياها عواصف

الألم .. وتقلصت الأصابع على الهواء وبرزت الأعين بنزر الرغبـة فى التدمير .. لكنهـا احست بخزى فأسبلت على شعور مرير بالعدم وصرخ صقر :

ـ الضفة الغربية ! ؟ يريدون القاهرة .. ؟ !

ـ أين تمـام الآن ؟ نريد ان نحـارب ولا نملك شيئا .. هكذا تمتم وفـا وقد أحس أنه وقع فى متاهة وخسر كل شىء ..

ودار أنور بالغرفة وهو يهتف :

ـ الحكومة تريد ذلك ! تريد أن تعيد كل شىء كما كان .. أن تفتح الباب للاستعمار ـ ثم هـدأ قليلا واستطرد ـ لست حزينا على شىء .. سينقلب الأمر عليهـا فى النهاية .. حين نقاتل سنعرف كيف لا نفرط فى حقوقنا ..

وجعل الدسـوقى يدور فى الحجرة ودموعـه تسقط فوق الأرض ويتمتم :

ـ كان أبو زيد يقود القافلة من الجزيرة الى بلاد الزناتى لأنه لا يحب الجوع .. لا يحب الجوع .. وشاعر الربابة جواب آفـاق لأنه لا يحب الجوع .. نحن نحب الجوع .. نحن نحب الجـوع ..

ووجد محسن نفسه يتكلم وكأنه ينتهى من الأمر كله ..

ـ اعتقد انه من الأفضـل أن ننصرف الى منازلنا .. واذا أردتم الانصراف الى أماكنكم تستطيعون الاتصـال بقوة الحوض الجاف وتشتركون معهم .. ليس مهما البقاء فى الادارة والمركز او الجراج الآن كما هو مهم البقاء داخل الشركة ـ وكاد يقول لقد وقعنا فى شرك منذ البداية وحرسـنا الهامش ! ـ واليوم مساء

سأذهب الى المكتب التنفيذى لأسمع حديث الرئيس .. ربما تكون هناك توجيهات جديدة !! من شاء منكم الحضور فليحضر ..

ـ ولأول مرة شعروا أن محسن اكتهل ، وأن لحيته طويلة جدا ، وصوته محشرج للغاية ، وأنه صار هشا كالخيط الرفيع ، وأن عينيه غارتا الى الداخل ، وأن شفتيه ذبلتا ، وأنه يبدو كمن يستقبل الموت غير مدرك .. وانهم رغم الأزمة ، كانوا أحيانا يضحكون ، ورغم موت علام أول أمس وخليل قبله ، ورغم خراب السفينة وضياع تمام ، احيانا يبتسمون ويحملون .. أما هو فكأنه حمل الدنيا والآخرة وهمهما .. واحس وقا بالذنب فقال :

ـ هكذا ستموت يا محسن .. لقد فعلنا ما علينا ..

وقال يحيى مصرا على موقفه :

ـ وأنا متأكد حتى الآن انها خطة واننا فى خطاب الرئيس سنسمع امرا يصدره للجيش ليشن هجوما مضاد يكتسح الاسرائيليين !

ولكن انور كان لايزال على قوته من الغضب فانفجر قائلا :

ـ أى امر مضاد ؟ بالأمس هاجموا العريش ، وضربوا بطائراتهم القاهرة .. والبيان يقول انهم وصلوا الى القناة ، ويحاولون عبورها . وكل اذاعات العالم قالت ذلك . وتأتى انت وتقول انها خطة ـ وقمع بصقة كادت تقفز من فمه الى يحيى وتحول بالحديث الى محسن بشكل يوحى أن ذلك صار عادة ـ وانت ! ؟ قل لهم .. قل لهم معنى الاشتراكية .. قل لهم

معنى الاستعمار .. قل لهم شيئا عن المنهج العلمى .. قل لهم عن المعسكرات .. قل أن النتيجة هى انه لا يوجد من يفكر فينا أو فيما يعمل او يقول . قل لهم اننا جميعا مسئولون .. اخدعهم .. الحقيقة أن أمثالكم هم المسئولون ! انتم كسالى تلعب بكم الدولة ونصف حكامها عملاء والنصف الآخر يحكم بالحديد والنار .. والريس .. هه .. الريس فى عالم آخر ـ وكاد يقول لعله وراء ذلك كله فابتلعها ـ ان الذين قتلوا فى السجون أرواحهم علينا ودمهم فوقنا اليوم حساب ..

ونهض محسن منهارا يتكلم فى تهالك شديد ..

ـ دعونى .. اتركونى جميعا .. ماذا تريد منى يا أنور ؟ هل تتصور أنى سعيد بما حدث .. ؟ ـ واحس ببعض من قوته تعود اليه ـ مالك تأخذ موقف الوطنى الوحيد وكأننا خونة ! ؟ جميعنا مسئول ، أجل ، لكن جميعنا يجب أن يعرف أن الحساب اليوم فرقة .. نريد أن نعرف الأمور على حقيقتها .. لقد ضعنا .. لكننا نريد أن نعرف سر ضياعنا .. وسنعرفه ـ وصرخ ـ والآن دعنا واذهب فى ستين داهية ..

وكأنما كان أنور يسعى الى المشاجرة فتقدم ليقف قبالة محسن ويهتف فى وجهه :

ـ أنتم المسئولون ! جعلت تتحدث عن التطبيق الاشتراكى فى مصر ! عن الثورة البيضاء ! عبد الناصر الاله ! العمل السياسى الجديد والصيغة المبتكرة للتنظيم السياسى . كيف ستواجه الناس اليوم ؟ اتذكر كلامك عن الحرب الوقائية التى سنشنها على اسرائيل فى أى وقت تفكر فيه بالاعتداء علينا ؟ اتذكر كلامك عن سياسة النفس الطويل فى الحرب مع الأعداء ! ؟

كان الشحات يود ، ولو مرة واحدة ، أن ينتهي من دوره كمخلص للنزاع لكنه عجز فصرخ :

ـ دعونا من المهاترات من فضلكم ..

ووقف ليأخذ محسن بعيدا ناحية باب الحجرة .. وكان الدسوقي عند الجدار المجاور للباب يقول لنفسه ولبشر آخرين :

ـ النصر لمن يصمد .. لمن يملك أن يرمي قوى جديدة ..

وقال أنور وهو يتابع محسن الذي يشده الشحات بصعوبة :

ـ أين السلاح يا جبان ؟ أين أرسلت تمام ؟

انقذفت شعلة نار الهزيمة في رأس محسن فاتقد وانفلت من يد الشحات واندفع مهاجما أنور الذي اندفع بدوره اليه .. كان الدسوقي لحظتها قد اقترب من الباب .. دفع أنور بذراعه بعنف في بطن محسن بمطواة مفتوحة فاستقرت في بطن الدسوقي الذي توسطها في تلك اللحظة !! في تلك اللحظة بالذات ، التي فيها أيضا في ذلك الجزء على ألف جزء من الثانية الذي تسمروا فيه مشدوهين بعد أن قيدتهم المفاجأة ، كان انور قد دفع الدسوقي المتداعي من أمامه ومرق من بين محسن والشحات وصار يقفز السلم في دفعات هائلة . وحين اندفعوا خلفه كان اختفى ، بينما كان الدسوقي قد تهاوى على جانبه الأيسر ثم انطرح على ظهره يشخب الدم من بطنه المرتفع ويد المطواه مرفوعة كوتد .. وكان الدسوقي يتمتم ببطء ..

ـ النصر لمن يصمد لمن يملك أن يرمي قوى جديدة ..

وكان لما يزل يبكي . ولم يكن معه في الحجرة غير الراديو الذي اتاه صوته هشا يقول « أذاع راديو دمشق نداء باللغة العبرية موجها الى الجنود الاسرائيليين يطالبهم فيه بعدم الاذعان الى أوامر قيادتهم العدوانيين وتسليم انفسهم للجيوش العربية التي لا تريد بهم شرا » ..

وابتسم الدسوقي بتهافت..وغمر العرق وجهه وجسده.. وكانت ابتسامته هذه المرة غير واضحة المعنى .. اختفت لحظة صار وجهه فيها ملائكيا لا يعرف حيل الدنيا ، وعادت من جديد .. ولم تزل غير واضحة المعنى .. وتباعد صوت المذياع شيئا فشيئا وصارت الجدران تنزاح من امام عينيه الى الخلف ثم ما لبثت أن تراقصت .. دارت .. انبعجت .. ابيضت .. شحبت .. ذاب فيها صوت المذياع .. ذابا معا .. وفي البقية التي لا يدركها الا مثل الدسوقي أحب الموت .. وكانت بقية كافية .. وكانت طاقة الحب كبيرة ، فذاب مع المذياع والجدران ، وذابوا جميعا مع الصمت الأبدي ..

- ٢ -

لم يهرب أنور من بوابة المركز الرئيسية كما ظنوا .. فحين اندفع قافزا السلم فى خطوات واسعة برق فى ذهنه حدس خاطف أن يختفى فى الدور الثانى .. وجد أمامه حجرة مدير المركز فدخلها بسرعة . فكر أن يغلق الباب لكنه وجد نافذتها المطلة على ورشة الدهان الصغيرة مفتوحة فقفز فوق سطح الورشة ثم قفز فوق الأرض .. سمع طرقات أقدامهم كطرقات الخيل الشاردة .. ولأن ورشة الدهان تقع خلف المركز دار حوله وغامر وقفز السور المحيط به الى الشارع الخارجى .. كان السور مرتفعا الى حوالى ستة أمتار ، لكن هذا المكان كان مخصصا لجمع بقايا الأخشاب والخردة من الحديد لذلك كان سهلا أن يرقاها ثم يتسلق الباقى من السور .. لم يفكر لحظة ان احدا فى الشارع قد يرتاب فى أمره .. نسى أن الناس أصبحت تشك فى بعضها . وان كثيرين ممن أمسكهم الناس على أنهم يهود متسللون ، اكتشفوا انهم مصريون بعد أن أشبعوهم ضربا ! ولحسن حظه ، وربما لسرعة الوقت الذى تم فيه ذلك كله ، فقد قفز وسقط فوق الأرض ونهض وأسرع الى الشارع المقابل ليختفى فيه فى زمن قياسى يبدو لحظة واحدة .. لحسن حظه ، أو لسرعته ، لم يكن لدى أحد من السائرين ـ وكانوا قليلين ـ وقتا ليرتاب فيه .. واستقل تاكسيا .. كان يشعر انه بذل

جهدا خارقا ، وبالعرق قد ملأ ثيابه ، وبكيانه كله ينتفض . وكان فى حاجة الى الاسترخاء التام .. داخل التاكسى لم يفكر بشىء .. ضاعت الحوادث كلها من ذهنه وغاب السائق عن وعيه .. أبلغ السائق بالعنوان ونام .. فوجىء بالسائق يوقظه فى أول الشارع الذى يريده .. غادر التاكسى واجما .. أحس كأنما الجو كله دخان .. دق قلبه بعنف .. الآن سيقابل الرجل الذى فارقه منذ عامين .. كان اللقاء الأول تاريخيا بالنسبة له ، وها هو اللقاء الأول بعد الفراق تاريخى كذلك .. ماذا سيقول له ؟ كيف سيجده ؟ هل تغيرت صورته ؟ هل تغير تفكيره ! ؟ هل سيجده اصلا ؟ سمرته قوة مفاجئة فى الأرض .. شدته قوة جبارة أن ينظر الى الخلف .. ان يستطلع الميدان .. التفت .. نظر .. لم يكن ميدان المنشية مزدحما كالعادة .. اختفت عربات الأقمشة وانسحبت بضائع المحلات من فوق الأرصفة الى الداخل واغلقت الدكاكين .. والمقاهى صارت خالية الا من قليل من الجالسين المستسلمين فى استرخاء على المقاعد كالمهملين . بدا له شارع النصر لا نهائيا وواسعا كصحراء ، والعمارات المصفوفة على الجانبين كجبال باهتة .. ورأى شارع فرنسا يمتد طويلا خاليا بلا حركة وهو الشارع التجارى العتيق، فبدا له كثعبان ميت .. الميدان واسع متألق بضوء الشمس الى الدرجة التى توحى بالفراغ والعدم ! .. انتثر فى فزع حين احس شيئا خشنا يتسلقه فوق جانبه .. قرد ضخم اجرب فى سلسلة معدنية سوداء أمسك بها رجل بشع الخلقة حافى القدمين ممزق الثياب يضحك فى وجهه ضحكة غريبة .. ضحكة لم ير مثلها من قبل ، فيها تحدى وشماتة وسخرية وغيظ وادانة وسب عليه ! . تراجع الى الوراء خطوتين وهطل عرقه .. جذب الرجل القرد فى عنف اليه ثم ارخى له السلسلة دفعة واحدة فاندفع ناحيته لكنه لم يقفز عليه كما توقع ، وقف القرد أمامه على

قدميه الخلفيتين وبدأ يرقص رقصا مقززا .. استدار أنور بسرعة ولاذ بالزقاق الضيق والمعتم .. كانت أول عمارة فى الزقاق هى التى يقطن بها صديقه وأستاذه وكانت من الطراز القديم ، عالية الطوابق على جدرانها رسوم غير واضحة بدت له كهفية أو خاصة بدير مظلم قديم ، درجها واسع واسود الدرجات يبدو من اظلام المكان وكأنما نحت فى بطن منجم رغم اتساعه .. توقف قليلا أمام الجرس .. كانت تجربة عظيمة بالنسبة له .. كان يشعر أن هذا الرجل يفتح له عالما جديدا .. وها هو اليوم يعود بعد تجربة مضنية ليشعر انه على أعتاب عالم آخر ، كل ما يعرفه عنه انه غامض وقابض وغريب .. دق الجرس .. لبث ينتظر وقد خيل اليه أن دقات الجرس صارت طرقات نحاسية فى أذنيه .. سمع حركة المزلاج فهرب ريقه .. فتح الباب .. نفس الوجه القديم .. النظرة الثاقبة المتأملة التى تبدو وكأنها تفحص الشخص وتقارنه بالعالم الذى ستدفعه اليه . لكن الرجل تتسع عيناه .. انه يندهش .. ثم يعود فيغلقهما .. انه يتذكر .. انه حقا قد تغير .. صار كهلا نحيلا .. عامان فقط مضيا لكنه يبدو عجوزا فى السبعين .. قال أنور بعد ان زايلته الرهبة وحتى لا يستطيل الموقف غير المتوقع ..

— أنور جابر .. اتذكرنى يا أستاذ سيد ؟

ابتسم الرجل ابتسامة فيها سخرية وعتاب معا وقال :

— وكيف انساك ؟

ثم افسح له الطريق ليدخل .. ولبث عند الباب لحظات بعد ان اغلقه بينما اتجه أنور الى الصالة حيث الأنتريه .. انها نفس المقاعد لم تتغير .. نفس صور الحائط .. لينين ..

ماركس .. ماو .. أضاف الرجل اليها كاسترو وجيفارا وجمال عبد الناصر ! ..

سمع صوت فرامل سيارة عالية بالخارج وساحقة .. انتتر واقفا وكاد يقفز ناحية النافذة بقوة مجهولة .. قفز الميدان الخالى الى عينيه واقتحم رأسه .. أنهد جالسا على حزن .. أخذه الرجل فى أول لقاء الى النافذة وقال :

— هؤلاء يسيرون نياما .. انهم فى حاجة الى من يوقظهم .. يتآكلون ويساهمون فى افناء أنفسهم بالتسليم !

ودارت عيناه الى الكتب المصفوفة فى صوانين صغيرين .. قفز اليه السؤال القديم الذى سأله لنفسه أول مرة عن كتب الرجل ولماذا هى قليلة ؟ قال لنفسه أول مرة لابد أن الرجل يخبىء الكتب الهامة فى مكان ما ! وتأكد له ذلك لأنه حين كان يدقق فى عناوين الكتب الواضحة على خلفياتها أمامه كان لا يرى بينها أيا من الكتب التى أعارها له الرجل .. لكنه الآن يرى الصوانين الصغيرين كما هما وممتلئين تماما كما كانا ورغم ذلك تطل عليه عناوين كثيرة من الكتب التى اعارها له الرجل قديما ! ولو كانت لديه قوة أكبر لفحص كل الكتب وكان لابد وأجد جميع ما أعاره له الرجل .. أغاظته هذه المسألة وأخنقه اكثر أنه لا يستطيع تفسيرها ! انقذه المقعد الصغير الذى لم يزل جوار الصوانين .. نفس المقعد الذى شاهد فوقه فى أول زيارة قميصا نسائيا ينطق .. قال له متخابثا :

— « لقد قلت لى أن سيادتك أعزب ؟ !

وادرك الرجل ملاحظته فقال :

— لا تقل لى سيادتك .. اعتبرنى صديقا .. ثم أن عمرى

ليس كبيرا .. اربعون عاما ليست كثيرة .. واذا اعتبرتني صديقا يمكن بالتالي ان تعتبرني شابا ومن ثم فلا حرج » ! .

انه يسمع وقع نفس الكلمات أصداء بعيدة .. المقعد اليوم خال خريفي .. ادرك ان الرجل لم يدخل خلفه فانزعج .. التفت ناحية الباب .. كان الرجل واقفا ينظر اليه مبتسما ابتسامة عريضة ومريبة .. أحس أنور ولا يدري لماذا انه وقع في مصيدة فانزعج .. لكن الرجل اقبل نحوه مشجعا .

ـ اهلا أستاذ أنور ..

ولم يفلح الصوت الذي يصطنع البشاشة في أن يخفي مشاعر الرجل .. كان منكسرا .. جلس أنور ولا يدري لماذا حين قال له الرجل « أهلا » وقف .. جلس الرجل .. لبثا لا يتحدثان .. جلسا جوار بعضهما تماما وصمتا كمن ينتظران مصيرا واحدا .. قال الرجل بصوت مكسور :

ـ انها ايام اطول من ليالي الشتاء .. بل قل اطول من عصور الجليد ..

لم يرد أنور .. فتساءل الرجل بهدوء وندم :

ـ لماذا اتيت .. ؟

تذكر أنور انه فارقه بطريقة تدريجية حتى لا يحرجه خاصة بعد ان تأكد له انه يتاجر في البضائع المهربة .. قال يومها في نفسه **« سيد بشارة المناضل الكبير الذي فهم الماركسية على أصولها في المعتقلات والذي قرأ رأس المال مهربا على ورق البافرة !! ويتاجر في البضائع المهربة ! »** .

وردد الرجل السؤال :

ـ ماذا أتي بك ؟ أتريد أن تبكي معي ؟ !

وبالفعل انطلق الرجل في النشيج .. انطلق يبكي بصوت عال ممتلىء حزنا .. كان صوته أوتار ندم ومذلة وأسف عميق ! . جعل أنور ينظر اليه في بلاهة . **« هناك شيء ما يا أنور لم تفهمه حتى الآن .. ولم تعد لديك الفرصة لتفهم .. ماذا حدث لمن لم يبق جزء من جسده دون أن يتعرض للاهانة والتعذيب ؟ .. هناك شيء يا أنور فاتك أن تفهمه .. أهزيمة الوطن هي التي تبكي الرجل .. ؟ آه يا أنور لو كنت تفهم ! »** واحس أنور بأن زيارته باءت بالخسران .. أحس أنه كومة خطأ .. اجل .. لكنه أيضا يحس أنه مسكين .. وكل زملائه مساكين ! القى بهم في بحر ثقيل ليعوموا وهم لا يجيدون السباحة اصلا . والجو ملبد بالسواد رغم سطوع الشمس الكاذبة .. وما أبشع أن يقتل الناس انفسهم ، وأن تجرى الأمور على هذا التوافق الفظيع ..

س : ماذا تعرف عن القتيل ؟

ج : كان مهزوزا !

س : ماذا تعني بكلمة مهزوز ؟

ج : اعني أنه كان بين الحين والحين يقف ويصلي فجأة ويقول كلاما غير مفهوم ..

س : هل كان دائما كذلك ؟

ج : أحيانا يكون عاقلا ، لكنها أحيان قليلة ..

س : بماذا تعلل عدم نطقه بكلمة سر الليل ؟

ج : قد يكون نساها .. الحقيقة أنه ينسى فجأة كل شيء ..

س : ألا تعرف شيئا محددا قد يضيف الى الموضوع بعدا مفيدا ؟

ج : اعتقد لا .. أجل ، تذكرت . مما قد يضيف للموضوع بعدا جديدا ، أقول جديدا ولا أقول مفيدا أو العكس ، أن القتيل رغم تدينه الشديد كان على علاقة بامرأة سيئة جاءت يوما تسأل عنه وقابلتها مصادفة عند باب الشركة تسأل شرطى الجمارك عن مكان عمله ولما سمعتها تسأل عنه وقلت لها أنى زميله متصورا أنها قريبة له أو من أسرته ، قالت لى ان لها عنده نقودا ثمن .. وقالت كلمة قبيحة جدا ..

س : لماذا أنت دائم العداء لمحسن .. ؟

ج : ....

س : لماذا تركت خليل يخرج وأنت أكثرهم فهما للأمور .. ؟

ج : ....

س : لماذا تركت علام ينحرف ؟

ج : ....

س : لماذا قتلت الدسوقى ؟

ج : لم أقتله ؟

س : لماذا هاجمت محسن وأنت تعرف أن الدسوقى سيموت بحكم كونك أكثرهم فهما ؟

س : لماذا ..

ج : أرجوك .. أسألك أنا .. ماذا على أن إفعل ؟ ولماذا ايقظتمونا من زيف الحلم .. ؟

س : لا تسأل .. أنت تجيب فقط .. لماذا لم يسلم تمام من لسانك ؟

س : أين تمام .. ؟

س : لا تسأل .. اجب ؟

ج : لماذا لا أفهم ما فاتنى ان افهمه ؟

س : قلت لا تسأل اجب ..

واستفاق على الرجل وقد صار يذرع الصالة منشجا ويقول :

— لم أكن أحلم بهذا اليوم .. رغم اى شىء فمازالت سنين المعتقلات صورا راسخة فى أعماقى .. فى المعتقل كنت تشعر بتأكيد ذاتك كلما زاد التعذيب .. حتى لو نالك لواط . لكن الآن .. الآن اشعر اننى امراة او اقل .. وكلنا الآن نساء نبكى .. أليس مرهقا أن أشعر بخطأى الآن بعد فوات الأوان ؟

س : اجب ..

ج : أن يتحول سيد بشارة الى مهرب فهذا أمر طبيعى لكن لماذا لا أفهم لماذا هو طبيعى ؟

س : اقلت اجب ..

ج : لو فهمت .. لو كنت أفهم .. !

واستدار الرجل ناحيته وصرخ :

— لم تقل لم اتيت ؟

وبدأ أنور يبكى ويقول :

ـ أردت أن أستريح قليـلا من عنـاء الهزيمة .. هـل أخـرج ؟

قال الرجل وهو يتجه الى غرفة النوم :

ـ الرئيس سيتحدث اليوم .. انتظر حتى نراه معا .. نريد أن نعرف هذا سنسلم ؟ هل سنصمد ؟

نظر اليه أنور ورغبـة جامحة فى أن يقتله تتلوى فى دمه ، لكن الرجل قال :

ـ اعتقد اننا سنصمد لكن الزمن سيسحقنا كثيرا ..

واختفى الرجل .. ترك أنور مهمـلا على مقعد فى ميدان المنشية ! كبسه النوم .. كان آخر خاطر له قبل أن ينام هو أنه لم تزل فى الرجل بقية عقل ..

س : ....

ج : لمـاذا فقدت العقل .. ؟ !

ودق جرس فانتفض من نومه على المقعد .. كان العرق ما يزال يواصـل افرازه منذ الصباح كما لو كان عمـادة اجبارية للجسد .. مد أنور يده يمسح عنقه .. ظل الجرس يدق .. نظر الى ساعته .. مضت ساعتان ..

س : ....

ج : لمـاذا يسرق النوم الزمن ! ؟

نهض فى تعب . فتح الباب ..

س : انت انور جابر ؟

ج : اجـــل ..

س : هل تعرف سر مهمتنا .. ؟

ج : أجل لقد مضت ساعتان لم أشعر بهما ..

ولمعت النجوم فوق كتف الطـارق ، وابتسم أنور ، ومد يديه الى الرجل الذى ظهر من الخلف وفى يده قيد حديدى ..

- ٣ -

عندما ركضوا خلف أنور ولم يجدوا له اثرا ، أتفقوا عائدين بنفس سرعة الركض علهم يفعلون شيئا للقتيل . كانوا يصعدون السلم بقوة مجنونة كأنما جاذبية الأرض صارت مقلوبة ! وجدوه هادئا ممددا على ظهره ، باسما فى دعة بسذاجته الطفولية المعهودة ..

لماذا جروا جميعا ؟

لماذا لم يبق منهم احد جوار المصاب ؟

لماذا لم يمسك أحدهم بالتليفون ليتصل بغرفة الطوارىء ربما يمكن انقاذه ؟ أسئلة تاهت من عقولهم ، ولم يفكر فيها غير يحيى الذى أحس بالخطأ الشديد .. خطاه هو بالذات ! . تحلقوا الجثة كخيالات أتت من زمن كهفى قديم . كان يحيى فقط هو الذى يستطيع أن يتكلم . هو الوحيد الذى كان يستطيع ان يحكم اعصابه فى هذه اللحظات خرافية الايقاع . لكنه فيما يبدو احترم المشهد المهيب . كانوا يشعرون ان العالم كذبة كبيرة . ان قبضة الكون الخرافية لما تزل تصوب سهامها النارية لهم . ألعنة موروثة هى أم كبوة أم سوء طالع ؟ .

صارت صورة الدسوقى أمامهم هى صورة الجيش فى سيناء فصار الدسوقى حاضرهم ومستقبلهم وطيبة ماضيهم مذبوحة امامهم . كان الدم قد وصل الى أول الدرجات وبدأ ينساب الى الدرجة الأسفل ليأخذ طريقه هابطا فى تأن شديد الوطأة والآلام . كان محسن مزقا جمعتها صدفة ريح ولن تلبث أن يبعثرها العاصفة الى أركان العالم البعيدة .. كان يفكر أن هذا القتل لايمكن أن يكون نتيجة خطأ . وأن أنور حين صوب المدية كان ضروريا ان يفعل ذلك . وكان منطقيا ايضا ان يقف الدسوقى بينهما ويموت . لكن .. آه لو يفهم لماذا ؟ ان أنور بالتأكيد لم يكن يدبر قتله لأنه مجرم يجب القتل . هناك قوى مسئولة عن ذلك .. آجل .. لماذا يقتل انسان انسانا ؟ ! ان انسانا مهما كان لا يستطيع أن يقرر أن انسانا آخر لا شىء ويمكن افناؤه .. ذلك قرار خطير لا يأخذه الا انسان خرج عن مدار الانسانية . صار غريبا عليها فى لحظة مفقودة من الزمن .. انه يدمرها .. وحين يرتد اليها يكون قد صار خارج دائرتها تماما ، أبدا لا يستطيع العودة من جديد .. وأبدا يحاول ان يعيد نفسه الى سياقها فيفشل .. لقد خرجت من داخله تلك البذرة الخفية الرائعة واستقرت مع مديته او رصاصته او اى أداة للقتل .. يجرده القتل ، والقتيل ، من انسانية لحظة ان يموت .. ما أعجب هذا الأمر !! يقتل انسان انسانا فيأخذ المقتول انسانية القاتل معه ويتركه متوحشا .. وما أعقل هذا الأمر أيضا .. حقا ان المعنى الخفى لذلك موجود وكامن فى أعماق كل انسان والا كان القتل هو الجواب على كل نزاع مهما انحط شأنه ، فالقتل دائما أهون من مظاهر كثيرة للشجار ، وأهون من الشجار نفسه بل والسب فى ابسط مظاهره .. ان يغفل الناس عن هذا المعنى شىء طبيعى ، لكنه يستيقظ دائما

عند لحظة الاختيار الحاسم .. انه لا يضيع من كيانهم تماما .. لكن ها هو يضيع من كيانهم تماما وها هو لا يقف امام الاختيار الحاسم .. لابد اذن من خطأ ما .. شعور جديد يركب الناس .. هذا الشعور ابن ظروف قاسية ، ناشزة فى التاريخ وشاذة فى الزمن .. وهناك مسئول عن هذه الظروف .. قد يكون فى مبنى الرياسة او مبنى القيادة العليا للقوات المسلحة او تل أبيب أو البنتاجون أو الكرملين أو مكة المكرمة وربما فى السماء . وهذا المسئول يجب تحديدة .. ويجب قتله وسحقه وارغامه على أن يلعق التراب ! .

وكان وفا مزلزل الكيان .. يشعر أن اللعبة قد كشفت عن خطورتها تماما ، وانها دخلت دورها المخيف ، وان ما قاله عن الظواهر الشاذة فى المجتمع صحيح وانها ليست بسيطة ولا شيطانية .. وان قتل الدسوقى خطأ مثل قتله مع سبق الاصرار سببهما واحدا ! وان ذلك أيضا معادل للمراة التى يبتزها الرجال فى المواصلات أو المراة التى تخون زوجها او الفتاة تتنقل بين ايدى الشباب أو أن يصبح للعاهرات سعر ويأخذ فى الارتفاع لاقبال الأشقاء العرب عليهم ! او ان يمتلك أغلب شقق عمارات شارع النصر غانيات يعملن لصالح الليبيين وغير الليبيين .. او أن تتم المقايضة على بنات الفقراء بالأقمشة المستوردة أو غير ذلك من كثير مما كان يعلنه محتجا عليه فى سخرية .. ويشعر الآن فى هذه اللحظة انها ظواهر تخفى وراءها خراجا متقيحا كان لابد أن ينفجر ، وحين انفجر ، انفجر صديدا ملأ الفضاء ولوثهم .. وبدت الدنيا تغيم أمام عينيه ..

فى نفس الوقت كانت سخونة دمع صقر تجعله يفكر فى أنه لم يبك زمن بعيد .. منذ زمن لم يعد يتذكره .. والأرجح أنه لم يبك قط .. ليس أبدا لأنه قوى ، فطالما كان يحن الى البكاء

وما أكثر ما كان يشعر بأنه مدفوع لأن يبكى وان هناك ما يبكيه فى كل لحظة وكل منظر يراه فى الشارع أو أمام التليفزيون او حين يسمع برنامجا فى الراديو .. وادرك أنه كان دائما يحاول أن ينسى رغبته الشديدة فى البكاء عندما يضحك احد امامه .. بل حتى عندما تضحك زوجته او اخته او امه او ابوه او حين يقول احد نكته أو يسأله طالب من تلاميذه سئوالا او حين يسمع محاضرة أو يشترك فى مناقشة ! والمرة الوحيدة التى كان الجميع فيها يبكون أمامه هى لحظة الوداع بالمعسكر السياسى وكان هو يريد أن يضحك ! ولكنه وقد وجدهم جميعا يبكون فقد بكى .. تذكر يوما فاتن حمامة وكيف انها تستطيع أن تبكى فى أى وقت يطلب فيه المخرج ذلك ! أدرك ان ما يمنعه عن البكاء هو الذى كان يمنعه عن الكلام وهو الذى يقتله اليوم ويقتل جيشه وشعبه ، وهو الذى جعل أنور يحاول قتل محسن وهو الذى جعل الدسوقى يقف بينهما ذاهلا عما يجرى امامه فيموت . ادرك انها محنة كبرى أن لا يستطيع أن يبكى وأن يضحك حتى فى الجنازات ! : محنة كبرى أن يمنع عن البكاء .. وان يتوقف بالقوة عن الحزن الذى يعيشه ليل نهار .. أدرك انه كان لابد أن يحدث ما حدث كى يبكى ولكن .. اكان ضروريا يا صقر ان يحدث هذا كله كى تبكى ؟ . واحس مسئوليته عما حدث لأنه لم يبك منذ زمن طويل .. لو كان بكى لما حدث شىء . اجل ، لو كان بكى ما حدث شىء .. ما مات زملاءه ولا اختفى تمام !

وجعل ينظر الى زملائه نظرات سريعة مترددة ، فيها رعشة الاكتشاف الفطرى لعالم جديد تماما ومبهم . هذا بينما كان الشحات يشعر ان دم الدسوقى ينساب منه هو .. أن روحه تتسرب من قدميه مع هذا الدم المنساب . انه يكاد يقع فوق

الأرض يلعق الدم .. وفكر أن لابد أن زملاءه يشعرون بما يشعر ..
وأن تمام لابد حدث له ما حدث للدسوقى .. وأن الدم يشخب
منه الآن فى مكان بعيد . انه لابد مسجى وادعا مبتسما . وامتدت
يده مرتعشة وهو الذى عرف عنه الاتزان والهدوء الى بطن محسن
الذى نظر اليه منكسرا اذ أدرك محنته .. اتسعت عينا الشحات
حين اصطدمتا بعينى محسن .. برقتا .. قال بصوت رفيع
مخنوق :

— لماذا لا يسيل منك دم والخنجر عميق فى بطنك .. ؟

والتفت الى وفا يتحسس جسده بينما طفرت الدموع من
عين محسن حارقة تنثال سريعة كأنما كانت تتشوق الى هذه
اللحظة منذ زمن فغطت وجهه كله فصار كوجه صقر الذى
صارت له ألف عين دمع حار .. واستدار الشحات الى صقر ..
رأى عينيه مرتعبتين .. تركه وسار ببطىء وانكفأ يغمس أصبعه
فى الدم الذى يتخلل القنوات الصغيرة بين مربعات البلاط ..
هبط السلم مع مسار الدم وهو منكفىء .. وقف فى المنتصف
ينظر اليهم ويقول بايقاع رتيب موقع فى تصميم وعزم غريبين ..

— أنا أعرف السبب .. وأعرف أن القاتل يقتل تمام
الآن .. القاتل ضحك علينا .. القاتل أعطانا وعدا زائفا .. القاتل
يقتل تمام الآن ..

وقفز السلم واختفى كالرمح وارتفع صوته يملأ صياحه
جنبات المركز وهو يجرى نحو الفناء ومنه الى الشارع حيث لم
يسمع له بعد ذلك صوت ..

وكان الدم قد أخذ يرسم خطوطا متباعدة ومتداخلة فى بعض
النقط فوق القنوات الصغيرة بين مربعات البلاط فشكلت

القنوات المتشابكة امام عينى صقر لوحة اخطبوطية بشعة
تحاصره .. أحس أن الذى يرسم الغابر كله ! استمرت عيناه
فى ترددهما وسرعة تحرك بؤبؤيهما .. صار يتمتم كمشعوذ
« سأقتل قاتلك يا دسوقى سأقتل قاتلك يا دسوقى سأقتل
من قتل الدمع فى الأجفان » وانكفأ فوق السلم يلوث
كفيه بالدم .. نهض وقد لمعت عيناه ببريق مخيف وحشى ..
نظر الى زملائه .. نظر الى كف يده فوجد الدم يصنع فوقها
صليبا أحمر داميا اذ كان وضعهما فوق قناتين متقاطعتين ..
قال بصوت خنقه الألم ..

— سألوث وجهه بالدم .. سألوث وجهه بمداد اوامره..
سألوث وجهه بألوان ريشته .. ها ها ها ها ى ..

وظل يصرخ ضاحكا ثم قفز من بينهم هاربا الى السلم
من الناحية الأخرى وهو يهتف :

— اتبعونى .. سأنتظركم عند السفينة .. القاتل هناك ..
القاتل .. هناك ..

واختفى وصوت صراخه يملأ المكان لحظات ثم تبدد وابتلعه
الفضاء الذى يبتلع كل شىء . وكان يحيى خلال ذلك قد انسلخ
من بينهم واتصل تليفونيا ببوليس الميناء .. عاد واخذ بيد وفا
وادخله الحجرة .. كان يتحرك معه ذاهلا وكان معصمم يده
باردا كالثلج تحت كف يحيى .. ثم عاد مرة أخرى ليأخذ محسن
ويجلسه أمام وفا .. أخرج من درج المكتب جريدة .. غطى
بها القتيل .. وجلس بينهما على جانب ثالث من المكتب ..

كان الراديو منذ لحظا وحيدا .. أما الآن فقد شاءت

الصدفة ان يتوسط الثلاثة فوق المكتب .. كان فى اللحظات السابقة ينشر مارشاته العسكرية فى الهواء ولا يسمعها أحد .. اما الآن فى اللحظة التى فيها لم يكن احد منهم قادرا على أن يفهم او يستوعب شيئا مما يمكن أن يقال بما فى ذلك يحيى نفسه ، فقد كان البيان العسكرى الأخير ..

انقطعت المارشات وجاء الصوت مبتورا يفضى بحقيقة كريهة لكنها لم تكن بذات طعم بالنسبة لهم !

قال المذيع مهرولا كأن حية تلدغه :

« ساد الجبهة الآن الهدوء وأوقفت جميع العمليات مراعاة لقرار وقف اطلاق النار » ..

صفحات من اعترافات انور

- ١ -

ولدت فى أسرة متوسطة . ولانى لا أميل الى شىء مفروض منذ كنت صغيرا ، كان تعليمي متعثرا . كان ممكنا أن أحصل على شهادة عالية . بل لقد استماتت أسرتى من أجل ذلك . لكنى لم أكن أميل الى الدراسة ، فهى كأشياء كثيرة أشعر بها مفروضة . لذلك حصلت ، لمجرد عدم الهبوط الى القاع فقط ، على شهادة فنية متوسطة . تماما كأسرتى المتوسطة . وعملت مدرسا فى مركز للتدريب ملحق باحدى الشركات البحرية . ولم يكن فى عملى شىء يستحق أن أكتب عنه ..

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

- ٢ -

كانت نقطة البداية حين تعرفت على سيد بشارة .. انه مناضل قديم .. هكذا قال لى حين سألته عن هويته .. قال بالتحديد ..

— الم تسمع عن المحارب القديم او السجين القديم ؟ انا مناضل قديم ..

وكان يبتسم بدهشة ..

وكانت بداية التعرف على شاطىء العجمى .. تعرف كالاف غيره تم على الشاطىء لم اكن اعرف انه سيحول حياتى بهذا الشكل .. قال لى :

— انتم تضيعون وقتكم الضائع فى ضياع !

تساءلت مندهشا ومرتجا على من طريقته فى الحديث ..

— كيف ؟

— تساءل بهدوء :

— ماذا تقرأ ؟

قلت :

— الجرائد

فضحك بعنف وشراسة وهو يستلقى على ظهره حتى لامست الرمال قفاه .. خلته مخبولا ودهشت كيف تسبب له اجابتى كل هذا الخبل .. فى الحقيقة فزعت .. لكنه اعتدل جالسا وسألنى :

— فقط .. ؟

قلت :

— والمجلات احيانا ، وأسمع الراديو وأشاهد التليفزيون ..

لم يضحك هذه المرة .. غضب وبانت على وجهه آيات الضيق كما لو يلى امرى ! وقال بصيغة آمرة وعنيفة ..

— اذا اردت أن تعيش كانسان فعليك أن تعتبر أنه لا يوجد شىء اسمه جرائد ولا مجلات ولا اذاعة ولا تليفزيون . — وبعد لحظة نظر فيها الى بدقة شديدة واستطرد — وطبعا هذا الحكم ليس خاصا بالعالم أنه خاص بمصر ومن على شاكلتها من البلاد .. ابحث عن الكتب حول نفسك الى دودة كتب .. ستكتشف عالما جديدا أساسه آدميتك ..

- ٣ -

لم اكن أعرف ان سيد بشارة هـذا من أوائل من انضموا للحركة الشيوعية فى الأربعينات .. ذهبت اليه ملبيا دعوتـه خـالى الذهن .. اقصى ما فكرت فيه انه رجـل يحب الكتب الصفراء ويكره الدنيـا .. ولا اكذب اذا قلت اننى ذهبت وفى راسى ان اسدى اليه معروفا واجعله يقرا الصحف ويسمع الاذاعة ويرى التليفزيون !! واذا فشـلت اجعله شـيئا اتسلى به .. صديقا خاصا وشديد الخصوصية .. وجدت منزله عبارة عن شقة واسعة منسقة وبديعة فى احدى عمارات حى المنشية .. عمارة قديمـة واسعة الغرف وصحية المنافذ .. دار بيننا الحديث ولدهشتى وجدت الرجل ملما بأمور شتى اجتماعية ونفسـية وسياسية وجنسـية .. شعرت بالخجل من نفسى .. كنت طوال الحديث مستمعا .. قال وهو يقدم لى كتابا ..

ـ هل سمعت عن الاشتراكية ؟

دهشت من السؤال . فالمفروض اننا نسمع عن الاشتراكية. كل يوم وكل ساعة .. خلصنى من حيرتى فالحق السؤال بآخر..

ـ هل سمعت عن كارل ماركس مثلا .. ؟

قلت وانا اتعجب من معرفة الرجل :

ـ لا ..

قـال :

ـ هذا كتاب له وهـذا كتاب عنه اقراهما .. لن تفهم الأول جيدا الا بعد قراءة الثـانى .. وحتى بعد ذلك لن تفهمهما جيدا ولكن ستشعر بشىء أخبرنى عنه بعد ذلك ..

تلقيت الدرس الأول .. وبعد قراءة الكتابين شـعرت بانى اريد أن اتشاجر وأن اقرا كثيرا فيما تحدث فيه الكتابان ! .. واخبرته .. وقرأت .. وعرفت فيما بعد أن له علاقات واسعة مع مهربى البضـائع الذين يمارسون نشاطهم فى طريق الغرب .. أعنى « ليبيا ـ مصر » ؛ تلقيت الدرس الأخير .. فارقته بطريقة حسنة بعد أن وضعت قدمى كل فى طريق !! .

- ٤ -

« الفكر فى الراس حشو فراغ .. لابد أن تبحث عن أماكن التجمع الجماهيرى تنشره بينها بذكاء » ..

هكذا لقننى سيد بشارة .. لذلك ، حين سمعت عن ان هناك تنظيما جديدا للشباب التحقت به فورا .. وجدته المكان المناسب تماما .. تنظيم شبابى مدفوع بقوة الدولة ومندفع بطبع الشباب .. لم اكن مقتنعا بتجربة التنظيم الأكبر — التنظيم الأم كما لقنونا — لانى بعد ان تقدمت فى القراءة أدركت ان الاتحاد الاشتراكى هذا تلفيق لا معنى له .. ووضعت نصب عينى بعد أيام من التحافى بالتنظيم الشبابى ان اجمع حولى من الشباب من استطيع معهم ان اقلبه راسا على عقب .. كان محسن عضوا فى التنظيم معى .. لم أكن قد تعرفت بعد على نوعية افكاره .. كل ما كنت اعرفه عنه هو انه قارئ نهم وعاشق للأدب .. اشتركنا فى أول معسكر سياسى بأبى قير .. منذ اول حلقة نقاشية ظهر الاختلاف فى طريقة تفكيرنا .. انه يؤمن بصحة الخطوط الفكرية العامة للتجربة كلها .. ويؤمن بضرورة وجود الاخطاء ويعتقد أن الطريق الى حلها هو القانون مع التشديد فى تطبيقه .. وانا اؤمن ان هذه الاخطاء ليست

ضرورة وممكن الا تحدث لو أن هناك سيفا معلقا فى الهواء يسقط على راس الذى لا يريد الانصياع .. كنت دائما أقول أن فرنسا لم تكن لتكون فرنسا الا على أنهار دم المذابح التى شهدتها السنوات الأولى لثورتها .. وان سان جوست وروبسبير أعظم من دانتون ومن نابليون أيضا .. وان الثورة السوفيتية تدين لستالين أكثر مما تدين للينين !! وكان هو يعتقد ان المشكلة الدينية ليست فى وجود الدين من عدمه ولكن فى تفسير الدين .. وكنت أنا أقول انه كما ان محاولة نزع الاعتقاد تجابه بسنين طويلة من التراث الروحى فكذلك محاولة توجيه الاعتقاد .. فاذا كان الجهد ضروريا ، وهو ضرورى فى نظرى ، فليكن فى نزع الاعتقاد !! وهكذا ظهرت خلافاتنا التى انعكست على صداقتنا بشكل او بآخر .. ورغم تقدمه على فى المواقع التنظيمية دائما الا أنى لم أحقد عليه قط .. كنت ارى أن الضلال فى رؤيته معادل لثوريتها تماما واقول ذلك له ولغيره .. كنت لا استطيع احتماله ، هذا حقيقى ، ولكن أيضا يخالط ذلك شعور بالشفقة عليه .. ذلك انه ناقص الخبرة والمعرفة .. فهو لا يتكلم عن غياب الحرية ولا يعرف شيئا عن المعتقلات — فكرت مرة أن ابدا كتابة كتاب عن تاريخ الاعتقال والمعتقلات فى مصر — ولا يعرف أنه يمكن القبض على أى شخص واعتقاله دون سابق انذار او تحقيق .. وأنه يمكن للانسان ان يخرج من منزله فلا يعود اليه .. واذا عاد فانه دائما فاقد لشيء ما بدءا من الأصابع حتى عضو التذكير مرورا بالعقل الذى هو الهدف الأول .. ومحسن متيم بعبد الناصر لدرجة الخبل رغم قراءاته فى الماركسية فيما اعرف .. يأتى عند الجد ويقول « الدين لا يهمنى الآن المهم أريد ان يأكل الناس .. أنا لا أصلى ، وصومى عادة ، ولكنى بصدد هذه المسألة أحب الحياد .. والقومية العربية

ضرورة ، والأمية بعيدة المنال ، والتأميم ممكن لكن المصادرة خطأ فى حق الناس . والملكية الخاصة مشروعة فى حدود القانون الذى لا يسمح بالثراء الفاحش والاستغلال ، أما الاستغلال فهوما اتفق عليه الناس انه كذلك !! » هكذا يعلمنا الميثاق كما يقول ! والتاريخ ليس عربة تجرها خيول ممتازة هذا صحيح ـ وهذا كلام محسن ـ لكن لابد ان نعترف بأن هناك خيولا ممتازة فى التاريخ !! وهذا كلامه ايضا .. وكنت أكظم غيظى .. ولكنى احيانا ما كنت أنسى واود لو اعصف به لكن لشعورى بأهمية استقطابه لما يتمتع به من شعبية فى العمل؛ لم أحاول أن اشوهه فى التنظيم السرى الذى كنا نتبعه !!

كان تنظيما من بعض أعضاء المنظمة المتطرفين والمتوسم فيهم وبعض طلبة الجامعة وبعض المناضلين القدامى .. كانت اجتماعاتنا فى مكتب خاص بأحد المقاولين الأجانب .. لم يكن للمقاول صلة ما بذلك ولكن كان سكرتيره هو رأس التنظيم .. وكان هذا المكتب يوفر لنا غطاء امنيا أمام اى شكوك مباحثية .. وكنا خلايا قليلة لا تعرف الواحدة الأخرى .. وكان محسن من أعضاء خلية غير خليتى .. ولقد عرفت ذلك بطريقة ما .. فى الحقيقة كان رأس التنظيم يتوسم فى كثيرا فدلنى على أسماء الجميع !! ولا اعرف ما اذا كان محسن عرف ذلك عنى أم لا ..

- ٥ -

فجأة وجهت الى نفسى سؤالا .. هل أنا قادرا على المضى فى هذا التنظيم السرى ؟ .. اخذت أحلل الأمور وقلت لنفسى « لا توجد أحزاب ولا يوجد حزب .. والموجود تنظيم جماهيرى فاقد الفاعلية لأنه تجربة تلفيقية اتت بعد خواء سياسى رافق النزعة التلفيقية التى لازمت الثورة وسينتهى الى خواء كذلك » .. وتذكرت سيد بشارة يوما حين قال : « قامت الثورة والأحزاب التقليدية شائخة .. لكن كان هناك والحق يقال جناح شبابى فى حزب الوفد كان يمكن للثورة أن تستفيد منه أو من بعض عناصره وكانت الأحزاب اليسارية تستطيع أن تساهم بدور كبير وخاصة أنها لم تعاد الثورة كغيرها من الأحزاب ـ وابتسم ابتسامة خفيفة جدا فهمتها فيما بعد ـ وزاد تأييدها للثورة بعد أن رأتها تبادر بقانون الاصلاح الزراعى واعلان المجالس الاقتصادية والجمهورية .. لكن الثورة عممت تصورها عن أحزاب الأقلية وعن الجناح التقليدى فى حزب الوفد واهلكت الجميع ضربا وسجنا .. هل تتصور ثورة تسجن الاخوان المسلمين والشيوعين معا ! .. هذا ما حدث .. وكنا نتساءل من الذى يستطيع أن يعيش بسلام » ؟

وفى دوامة هــذا التحليــل زارنى زميل واخبرنى بتوقف الاجتماعات ـ لم تستمر أكثر من شهر ـ لفترة بعد أن تم القبض على بعض الزملاء .. وفكرت .. ماذا يحدث لو اختفيت بفعل رجال الأمن..لن يجرؤ احد ان يسأل عنى لانه سيختفى بدوره..

واكتفيت بالعمل داخل التنظيم الشبابى فقط وبوضــوح لأنه والحق يقال يتمتع حتى الآن ـ ونحن على ابواب معركة مع اسرائيل بعد ايام ـ بحصانة شديدة .. لكن هذا لا يجعلنى انسى أن أقول ان نفس الأيدى التى أقامت هــذا التنظيم ستخنقه .. والا كيف نفسر تحويلهم له الى الاحتفالا والمقابلات والهتافات .. هذه التنظيمات التى تقيمها الدولة لها أغراض اخرى غير ما تقوله واذا خرجت عن مسارها ضربتها الدولة . نحن نعرف ذلك ولكن لابد من استثمار الموقف !!

- ٦ -

عشت فترة قلق بعد ان قبض على هؤلاء الزملاء .. لكنهم كانوا شجعانا والا ما كتبت هــذه الكلمات ..

بدات كتاباتى للمذكرات كهواية مراهق .. وانقطعت عنها منذ بدات أفهم شيئا عما حولى ولكن لا اعرف لماذا عدت اليها وكتبت هذه الصفحات مرة واحدة .. هل لأن الحرب لابد مشتعلة بيننا وبين اسرائيل لأن حكومتنا أغلقت اليوم مضايق تيران فى وجه الملاحة الاسرائيلية .. وما علاقة ذلك بالمذكرات .. ؟ لا اعرف .. قد تفيدنى اذا رجعت اليها .. او .. ماذا سأكتب « أو تفيد غيرى اذا لم أرجع اليها .. » .

اليوم الأول

لا يدرى كيف انتهى اليوم .. لا يدرى كيف وصل الى هنا .. لقد شعر انه مات اكثر من مرة .. انه لا شيء ألف مرة .. انه أجوف .. مجرد اقدام تمشى .. بليد بلادة قطع الأخشاب القديمة ملقاة فى بئر فارغ فى صحراء موحشة تصرخ فيها الرياح .. لقد جاء البوليس .. أجرى تحقيقا سريعا .. لا يدرى كيف كان يجيب .. لا يدرى نوع الأسئلة التى يسألها الضابط .. كل ما يدريه إنه كان يتكلم وكان الضابط يتكلم .. كان يشعر ان وراء الكلمات معنى عميقا لكنه أصبح عاجزا عن فهم هذا المعنى الذى يراه ويكاد يلمسه بيده .. ربما لأنه كان يود الا يحدث ذلك .. ربما لأنه يكره أن يقتنع بهذا المعنى ..

قال الضابط :

ـ لقد اتعبتمونا .. ثلاثة حوادث فى اربعة أيام ..

ـ ....

س : **من الذى بدأ الشجار ؟**

ج : ربما أنسا .. كان يسعى اليه ..

س : **هل كنت تعرف انه يحمل مدية .. ؟**

ج : لا .. ولم أعرف لماذا عدت اليه .. ؟

س : **هل تعرف اين يمكن أن يكون الآن ؟**

ج : لا ..

قـال وفـا :

ـ انا اعرف انه كان يعرف تاجرا بالمنشية اسـمه سيد بشارة .. انه تاجر مشهور .. ولقد قال لى انه على صلة قرابة به من ناحية امه .. »

يريـد الآن ان ينسى كيف مر عليـه النهـار .. كيف كان المسـاء .. يريد ان ينسى كل شيء .. انه ينظر الى السفينـة المحطمة .. اين الحرس .. ؟ اين قوات الجيش وحرس الميناء ؟ كيف يتخلون عنها الآن ؟ .. ان الحرب لم تنته .. لقد وصـل الاسرائيليون الى القنـاة .. اجل .. دمر الجيش .. اجل .. تنحى الرئيس .. لكن هـذا لا يعنى نهاية كل شيء .. الخطر ما يزال كامنا فى كل لحظـة .. فى كل هبة هواء .. فى كل خطوة فى الظلام او فى النور .. آه سفينتى المحطمة .. انبعجت الواح الصاج وطارت الجثث فى الفضـاء .. هوت المؤخرة وسقطت المقدمة وتحطم الباب ليندفع المـاء الغبى يتلف كل شيء أعد باحكام .. صـور شبحية شاحبة انت .. بقايا دوارس لم يمر عليها زمن ! .. تقول أن هنا كانت ارادة وكان أمل صـوح بهما وطوحت بهما شياطين ومردة تحددت هويتها بالشر الأسـود .. ها هو الآن جالس جلسة لم يكن يفكر يوما انه سيجلسها .. وحيد والليل أسود قاتم قذر .. كانت قدماه تسيران فى طريق وراسه فى طريق وقلبه فى طريق ثالث .. يا دموعى لمـاذا الا تهطلين؟ لمـاذا تتراجعين وتتآمرين على قتلى كمدا ؟ لمـاذا تجعليننى ذاهلا ابله ؟ خذى هـذا الهم عنى وافيضى على وجنتى .. بللى وجهى وصـدرى وارض الطريـق .. دعى أقـدام الملهوفين المهرولين صارخين لا يعرفون ماذا جرى وماذا يمكن أن يجرى .. الذين يجرون لأنهم يشعرون انهم فقدوا كل شيء .. لأنهم وجـدوا

انفسهم فجأة فى عرض الطريق المزدحم حيارى بلا سـلاح .. دعيهم يغرقون ويسبحون فيك .. قولى لهم أن هنـاك فى هـذا الظلام من يمد اليهم دموعه !

« لقد تعودنا معا فى اوقات النصر وفى أوقات المحنـة .. فى الساعات الحلوة وفى الساعات المرة .. أن نجلس معا .. وأن نتحدث معا بقلوب مفتوحة .. وأن نتصارح بالحقائق مؤمنين انه من هـذا الطريق وحده نستطيع ان نحدد اتجاهنا السليم مهما كانت الظروف عصيبة ومهما كان الضـوء خافتا » ..

الضوء خافت والقلب مطموس فى طين .. وسياط سوداء تلهب القلب فيطير منتفضا وحيدا فوق المـاء تدوسه أقـدام همجية وتدفعه الى قاع الطين من جديد .. القاع ياسفينتى تحطم وتسرب اليك المـاء الغادر .. القاع ياسفينتى كان صلبا .. كان راسخا .. هكذا كنا نراه وفجـأة حوله الانفجار الى ثقوب مروعة .. الى طرق تنفذ منها الريح .. الى آبـار تخنق وتدمر الراس .. لمـاذا الخدعة .. لمـاذا الخدعة .. لمـاذا ؟ .. آه .. كانت نظراته بعيدة .. مشدوهة .. قانطة .. منزوعة الاتصال بكل ما هو واع .. وكان الصـوت مختنقا .. الورقـة مرتعشة .. والصورة كلها كابية ..

ـ لا يا ريس .. **لا** يا ريس ..

وسقط واحد فوق أرض المكتب .. المكتب التنفيذى .. آه .. كم من ليـالى جلسنا هنـا .. خططنـا .. ناقشـنا ـ ودرسنا .. انجزنا مشروعات .. كنا نحمل هم المجتمع وهم الناس .. كنا مدفوعين بحمـاس غريب .. حمـاس التـاريخ

المطمـوس والرغبـات المكبوتـة منذ كنـا نرد غزوات الحيثيين والهكسوس والفرس واليونان والرومان والأتراك والفرنسـيين والانجليز .. الرغبة التى توالت عليها عهود الآخرين ..

ـ لا يا ريس .. لا يا ريس ..

وصرخ آخر وسقط .. شـعروا انهم فقدوا كل شيء .. ها هو الزعيم الذى عاشـوا ينفذون تعاليمـه .. الذى كانـوا ينتظرون خطابه ويحتفلون به .. يناقشـونه يستخلصـون منه الدروس .. يعمـلون بوحى من هديـه .. هو .. الزعيم .. يتركهم .. يذهب .. يبتعد .. يختفى .. يموت .. كانوا يعتقدون انه سيعطيهم املا .. فهو قوى .. جمال عبد النـاصر قوى .. اقوى مما يتصـور البشر .. لكنه يتركهم .. ينفذ فى قلب الحقيقة .. لا أمل .. اسودت الدنيـا فى العيون .. تلوت الوجوه تنظر الى بعضها .. اصبح صـوته .. فى آذانهم غير مفهوم غير واضح .. كانوا لا يصـدقون .. كان محسن يحسب أنه يسمع صوتا آخر .. ليس الزعيم هو الذى يتكلم .. لكنـه هو .. انه ليس هو .. لكنه هو وليس غيره .. الحـالم بيوم للوحدة العربية .. الفاتح الأبواب لرياح الاشتراكية .. الذى غنى له عبد الحليم حافظ أجمل الأغنيات .. الذى كان صـوته يدفع فيهم النشاط العظيم الباعث على السعادة وهم يجرون فوق البرك والمستنقعات فى أعمـاق الريف بالتراب ليردموها .. يقيمون فوقها ساحات شعبية وملاعب ومدارس ومصحات .. صوته .. آه .. صوته العميق النافذ فى الأعماق المجلجل فى جلال **« ايها الاخوة .. لقد فرض علينا القتال .. لكن لن تستطيع قـوة فى الأرض أن تفرض علينـا الاستسـلام .. سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل الى آخر قطرة من دمائنا »** .. لكن الجميع

تركوا السفينة والربان .. **« باسـم الأمة .. نعلن تأميم الشركة العالمية شركة قناة السويس البحرية .. شركة مساهمة مصرية »** كان صغيرا لم يفهم هـذا الخطاب يومها .. لكنه فى المعسكرات .. فى مشروعات العمل كان يسمعه .. ويحبه .. ويعيده الى سنين البطولة التى حرمته طفولته منها .. ها هو الرجل الذى أسر القلوب فى الأزهر .. ودوخ الاستعمار .. هو نفسه يذهب .. اكاد لابد من هـذا .. **« لقد اتخذت قرارا أريدكم جميعـا أن تساعدونى عليه .. لقد قررت أن انتحى تماما ونهائيـا عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى وأن أعود الى صفوف الجماهير وأؤدى واجبى كأى مواطن آخر .. »** .

الشوارع تصرخ محتجة متشبثة بقليل امل .. المنـازل والعربات والطرقات حناجر مليئة بالارادة رغم انها مذبوحة .. فلماذا كان مذبوحا ؟ .. لمـاذا كان مذبوحا رمز سـنوات صراعها المجيد ؟ .. وكان اجتماع قصير بين الأعضاء ..

قال أمين مساعد الشباب :

ـ ليس مهما أن يتنحى .. سيصبح مثل ماوتسى تونج .. زعيما لا رئيسا !!

يا خيبة هـذا الوطن وخيبتنا .. وتبعثر الاجتمـاع .. وتبعثروا فى الشوارع مع جموع الشعب الزاحفة الى ميـدان المنشية .. ميدان التحرير الذى شـهد أروع قرارات الثورة .. وشهد أيضـا مؤامرة اغتيـاله .. والذى يتصـدره أيضا مبنى الاتحاد الاشتراكى .. بورصة الأوراق المـالية القديمة !! .. الجميـع يجرون صارخين بالهتاف .. صاخبين بالدمـوع ..

رجالا .. نساءا .. شبابا .. فتيات .. صبية صغار ...
وعرف الشعب القيامة .. ومحسن قد خرج من المكتب التنفيذى
فى شارع التحرير .. يجرى حينا .. يسرع الخطى حينا ..
يمشى الهوينا .. يقف يتلهف والأقدام تتراكض من حوله .. سأل
نفسه هل يجرون الى شيء أم من شيء ؟ .

وجد نفسه فى منتصف شارع النصر .. ثم عند نهايته ..
كان ميدان المنشية أمامه واديا ممتلئا بالأصوات الوحشية التى
حبستها أزمنة سحيقة . كأنما للكون أوتار تخفق .. لكن الظلام
تام يلف كل شيء .. والأصوات وحدها تتحدى الظلام ..
تضاءلت أصوات ميكروفونات الاتحاد الاشتراكى أمام الحناجر ..
أفواج متواكبة من كل الطرق تصب فى الوادى الحزين .. ان
محسن يرى لوحة الحزن تملأ الفضاء .. لكنه لا يبكى ..
جسده كله يعتصره الألم العنيف والرغبة فى سحق الوجود
بما فيه .. لكنه لا يبكى .. دوت صفارات الانذار .. من يسمع
صفارات الانذار الآن ! ؟ ما معنى الانذار الآن ؟ ان احدا ممن
امتلأ بهم الوادى الحزين لا يشعر الا بأنه صار عاريا فجأة ..
يتلفت حوله فلا يجد شيئا بعد أن صفع على راسه صفعة
شديدة شلت قدرة الروح واحبطت دم القلب فاستقر فى القاع
متخثرا .. ومحسن ثائر .. تائه .. لا يهتف .. لا يتأمل
شيئا مما يجرى أمامه .. انه يسير .. يجرى حينا .. يسرع
حينا .. يتمهل .. يلف .. يدور حول نفسه .. وفى لحظة
لا يعرف كيف فطن لها أحس بالشركة .. بالسفينة المحطمة ..
انسحب الى شارع السبع بنات .. وجد نفسه وحيدا فى طريق
عودته .. الدنيا كلها تجرى الى ناحية وهو يزحف الى ناحية !

فجأة .. بعد ان قطع مسافة طويلة من الشارع احس

بنفسه .. واحس بنفسه يسير فى طريق مضادة .. واحس
بكلمة مضادة هذه اكثر حين اصطدم اكثر من مرة فى طوابير
الهلع المتجهة الى وادى الحزن .. وبكى .. بكى .. بكى ..
واسرع كأنه مطارد .. كان صوت نشيجه عاليا .. حين تعب
تمهل .. صار يجر ساقيه .. فوجىء بعجوز يحاذيه فى السير ..
جواره تماما .. لا يعرف من أين ظهر .. كان يمشى مثله فى
الطريق المضاد .. لكن العجوز لا يبكى .. يقترب من محسن ..
يضع ذراعيه على كتفه .. يربت عليها بحنو .. لم يخجل محسن
منه .. احس أنه يريد ان يدفن راسه فى صدر العجوز الذى
قال :

— لا تبك .. لا تبك .. تماسك .. هل انت صغير .. ؟

وازداد محسن فى البكاء فتركه الرجل واختفى فى لمح
البصر .. وها هو محسن الآن أمام السفينة بعد أن جفت
دموعه واستعصت عليه ينفجر فجأة فى البكاء من جديد .. كانت
الأيام القادمة محطة التاريخ التائهة منذ زمن سحيق .. وكنا
سنراك مجللة بالأفراح والزينات تنزلقين الى الماء وتخطرين ..
ونجرى ورائك ونضحك .. نفرح ونبكى سعادة .. انك
أيدينا .. وقلوبنا الصغيرة .. اى ارادة غبية مقيتة شاءت لك
هذا الهوان .. واقفة عاجزة أنت بلا جيش ولا حراس .. من
يستطيع أن يعود اليك .. من يضع يده بأول قطعة صلب
جديدة .. لقد ذهب .. **« لقد كنت أقول لكم دائما أن الأمة هى
الباقية .. وان أى فرد مهما كان دوره ومهما بلغ اسهامه فى
قضايا وطنه هو أداة لارادة شعبه وليس هو صانع هذه الارادة
الشعبية »** .. اذن لماذا يصرخ هؤلاء الناس . ؟ هل يكونون
يصرخون على شيء آخر .. هل كان على خطأ على طول

الخط .. انه رمز .. وجوده الآن يعنى ان الثورة باقيـة وأن المعركة لم تنته .. المعركة التى دارت أسرع من البرق وانتهت كطيف محرق .. لكن النـاس .. النـاس تجرى لشىء آخر يا محسن .. لا تفهمه ولن تفهمه .. اغلقت نفسك على ما لا يفهمه الناس .. ويلك يا محسن مما قلت أو فعلت .. ها انذا صرت جثة .. جثتنا التى تداس فى سيناء الآن .. نحن موتى أيضا .. نحن لم نفرط فيك .. نحن موتى ايضـا .. لكن .. لكن .. وهبت نسمة باردة .. رطبـة حلوة .. طيبـة .. هفت على وجهه .. انعشته قليلا .. كفكف الدمـع ثم .. ثم بكى من جديد .. احس بصرخات آلاف الجرحى .. بدبابات الشر تطحن عظام اخوته .. كم الفا ماتوا وكم ينسحبون الآن وكم تائهون ؟ .. آه .. كيف كانت البداية .. وكيف كانت النهاية ؟ .. ورأى السفينة أمام عينيه سؤال كبيرا .. من يستطيع أن يجيب .. من .. من ؟

« اقول لكم بصدق وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفى فى الأزمة فاننى على استعداد لتحمل المسئولية كلها » .

لكن هناك اشياء خفية لابد يعرفها .. وبدأ يفكر فى ظواهر كانت غائبة عنه حين بدات القطع المتناثرة من حطـام السفينة تأخذ أشكال أسئلة مظلمـة وملحة .. واصوات الموج الهـادىء تشكل سؤالا كبيرا .. من المسئول ؟

ورأى الدنيا حوله كبيرة لكنهـا ليل .. الورشـة خلفـه كبيرة لكنها تائهـة فى جوف الليل .. السـاعة الآن تقترب من الثالثة صباحا .. هذا يوم جديد .. الفجر ما يزال بعيدا وقد لا يأتى ابدا .. قد يظل منكمشا فى جوف الليل !! وادرك أن مسئوليته كبيرة .. مسئول عن هـذا العالم الكبير الخيالى

حوله .. والسؤال معلق فى رقبته ولابد من الاجابة عليه .. أليس هو الذى كان متفائلا ويقول ويقول مبررا كل الاخطـاء مبررا الصعوبات كلها بأنها مرحلية .. وتغلبت عليه الذكريات .. حين تعرف على مناضـل قديم .. مناضـل ظل طوال عمره يحـلم بالثورة لكنه لم يحـاول ان يصنعها يوما ولم يشترك يوما فى مظاهرة .. لم يرفع يوما سـلاحا .. لكنه كان يحب الوطن .. رأى هـذا الرجـل معه كتابا عن « ابن الرومى » وآخـر عن « المسرح الفرنسى » فسأله :

— هل تحب الأدب ؟

— جـدا ..

— لمن تحب أن تقرأ .. ؟

— رغم ما تراه معى فأنى أحب المعرى ..

— لأنه كثير التأمل فى الحياة والموت ..

— اجـل ..

— فقـط ..

— ولأنى أحب العزلة وكان هو منعزلا وأحب البكاء وأشعر فيه بوجودى ..

وضحك الرجل وناقشه وأقنعه فى النهـاية أن جوار هذا الأدب نوعا آخر يضعك فى قلب الحيـاة .. قال له لن أقول لك اقرأ رواية « الأم » « لمكسيم جوركى » ولكن اقرأ له روايـة « كونوفا لوف » واعرف نهاية الطريق الذى يسلكه الانسـان وحيدا — ثم قال — لماذا لا تدخل فى التنظيمات السياسـية ؟

هناك تنظيم للشباب .. قديما كان الشباب يخرج بلا تنظيم فكانوا يفتحون عليه الكبارى .. لكن اليوم لن يفتح أحد على الشباب الكبارى ! . بل سيفتحونها لهم لأن الشباب اليوم هو الثورة نفسها ..

وذاب محسن فى العمل .. ساهم فى معسكرات كثيرة بالرأى وفى مشروعات كثيرة بالعمل .. ثم اختفى هذا الرجل بعد أن أسلم محسن لآخر أسلمه لتنظيم سرى لم يستمر أكثر من شهر .. اختفى التنظيم حين اختفى بعض أعضاؤه .. وعرف محسن بعد ذلك أن من اختفوا اعتقلوا فلم يصدق .. وعرف أنهم اعتقلوا فى مستشفى الامراض العقلية فلم يصدق .. وقفزت موجة جسورة رغم هدوء الجو .. ارتفعت فوق الرصيف الذى يجلس فوقه وبللت ركبتيه .. وتقهقرت الذكريات لكن الأسئلة عادت تلح عليه .. ماذا يفعل الآن ؟ هل تراه سلك الطريق الصحيح .. استولى عليه حنين طاغ للأدب .. للعزلة .. آه .. هنرى باربوس .. هل أعود وأغلق حجرتى وانظر من ثقب المفتاح .. لكن مشهد السفينة عاد يكبس فوق قلبه .. انت تتحمل الوزر كله .. هكذا تقول السفينة .. تذكر الأصدقاء .. والأعداء .. تذكر خليل وكيف جذب .. لماذا لم يوجد من يأخذ بيده الى الطريق الصحيح ؟ . لكن أين الطريق الصحيح ؟ . هل كان هو الذى يمكن أن يفعل ذلك ؟ .. وعلام .. أكان يجب أن يندفع بينهم ليكون ضدهم ؟ كيف يصل الأمر الى أن يصبح صاحب المصلحة هو عدوها ؟ كيف يفسر هذا التجاذب العنيف بين الشباب بغير العشوائية والخبل ؟ وشعر أن كل ما كان أكذوبة .. والحقيقة الوحيدة هى أن رياحا عاتية ستعصف بالجميع .. اثنى عشر عاما تحمل الوطن لتضعه لقمة سهلة على مائدة الأعداء .. ما أرخص الزمن .. وما أبشع المأزق الذى

هو فيه ومن مثله .. لم يعد يعرف ماذا سيفعل .. بل لم تعد لديه قوة ليفعل شيئا .. ولكن .. هل ينضب الوطن ؟

واختلطت عليه الأمور .. هاجمته قطع الحديد الشوهاء من جديد .. أحس بأن الروافع العالية التى لم تصبها الانفجارات سوف ترفعه وتلقى به الى البحر .. لكن السفينة ازدانت فجأة أمامه بالورود .. ومسح دمعة ثقيلة فقفزت السفينة من جديد الى عينيه بصورتها البشعة .. ثم رأى نفسه يطير فوق شوارع مليئة بالمنشورات .. ورأى أبواب سجون تفتح ومعتقلات ويدخلها الشعب كله .. وحاول أن يتكلم فلم يجد احدا يسمع اليه .. جعل يحدث نفسه ويقول « لقد كنا دائما نحدث أنفسنا فلا بأس أن نستمر حتى ولو لم يسمعنا احد » .. لكنه فى حاجة شديدة لمن يسمعه .. غطى وجهه بكفيه وانشج بصوت عال . أحس بذقنه طويلة جدا وخشنة .. تذكر أن له أبا وأما أهملهم كثيرا .. حنينه لأبيه كبير ..

« ــ يا ابنى دعك من السياسة .. ليس هنا أفضل من السير جوار الحائط ..

ــ اذن لمن الشوارع يا أبى »

واغلق الحديث .. ابتسم بينما ضحكت أمه حين ارتج على ابيه فلم يعرف كيف يجيب .. لكن أباه كان يفهمه رغم الصمت .. محسن .. يدرك ذلك جيدا .. بل كاد يتكلم .. لكنه كعادته حين يجانبه الريح يتمثل الصمت .. ورأى محسن عينى أبيه تقولان « الشوارع كلها مسدودة والشارع الوحيد المفتوح فيها فخ كبير » وناجى أبا العلاء .. « اعود اليك بعد أن احببت الهواء الطلق .. وقال الأعمى انه لم يعتزل ولكنهم عزلوه .. فقال

له اذن دعنى ولو قليلا حتى افهم البذرة الخبيثة .. حتى لا يسقط منا الدسوقى مرة أخرى أيها الشيخ .. فقال الشيخ هل لديك قوة الفهم ؟ .. » واحس بالعجز وخرج له صايغ من بين الماء سعيدا يقول « لقد أدركت خطأى القديم » هل يستطيع أن يفعل مثل صايغ .. لقد هرب منه الزمان ويسيطر الآن عليه شعور سقيم .. اكذوبة طويلة عاشها وحين اكتشفها هرب القطار أمام عينيه ، بل تحطم .. انه يحتاج لوقت طويل يتطهر فيه .. يبتعد أولا عن كل شيء .. كمريض الحمى الذى صار هشا يشعر أن أقوى ما فيه قد انهار واصبح فى حاجة لبناء جديد .. بناء يا سفينتى جديد .. وليس مهما أن أشترك فيك من جديد .. المهم ان اكون موجودا .. أراك مرة واحدة مجللة بالورود واموت أو ألحق بالأعمى المعزول ..

وسمع صوتا خافتا يأتيه من الخلف .. اضطرب .. تصور أن الله جاء يحاسبه .. لم يتحرك عن موضعه .. واختفى الصوت .. فالتفت ليدرأ عن نفسه الجنون .. لكنه ميز شبحا من بعيد يقترب فى ثقة .. يخطو فوق الحديد والصاج فى ثقة رغم الظلام الكثيف .. انه .. انه .. غير معقول .. أراد ان ينهض لم يستطع .. اراد أن يتكلم لم يستطع .. اراد ان يبكى لم يستطع .. اراد ان يدرك ما اذا كان مشلولا أم لا فلم يستطع .. اتسعت عيناه فقط واختنق صوته وتحركت اصابع كفيه وتهدجت انفاسه وصار يلهث .. واقترب تمام منه .. !

كيف لم يعرف صوته حين سمعه .. كيف تاه من عقله ولم يعد يذكره .. تمام حبة القلب وقلب الصديق ..

جلس تمام جواره صامتا .. كان محسن يود لو يعانقه .. لو يقبل كفيه وعينيه وجبهته .. لكن تمام جلس صامتا

وجعل ينظر الى البحر .. كان البحر يمتد امامهما عريضا فسيحا أسود مهيبا .. كانت السفن المتناثرة فوق المياه كتلا سوداء مظلمة أشد سوادا من الليل .. رأى محسن هذه السفن البعيدة لأول مرة .. وأدرك انها تقف فوق المياه وهذا يعنى أن فى الدنيا حياة رغم الظلام .. ورغم ان كل شيء يبدو ميتا .. قال بصوت منسى :

ـ كيف عرفت ؟

ـ سألت عنك خفير المركز .. الوحيد الذى وجدته فى الشركة ..

سمع صوته حزينا لكنه محدد وقاطع .. رآه شاحبا منهكا .. اختفت ابتسامته البسيطة التى لم يتصور وجهه دونها يوما لكن فى عينيه عزم غاضب .. والتفت تمام ينظر الى محسن ليراه شاحبا غارت عيناه الى مستقر بعيد .. أحس تمام أن محسن يود أن ينظر الى الخلف .. أحس بخسارة شديدة .. قال فجأة على طريقته القديمة .. الهادئة الواثقة التى لا يعرفها الا محسن ..

ـ السفينة وانت .. هى محطمة وانت محطم .. لكنها موجودة وانت موجود .. أليس كذلك .. ؟

كانا دائما يختلفان فى الرأى .. وكان محسن يشعر دائما أنه محق وتمام على خطأ وهذه هى المرة الأولى التى يرى فيها تمام محقا وهو على خطأ . لكنه قال فى حسرة .

ـ ضاع كل شيء يا تمام ..

وكان الفجر قد بدأت تتسرب بعض خيوطه مورسة باهتة تحاول أن تتشبث بالأفق الذى اثقله الليل .. أشار تمام الى الأفق وقال :

ـ هناك خيوط حمراء بدات تظهر .. الفجر فى الطريق .. هيا بنا .. امامنا عمل كثير ..

لم يفهم محسن ماذا يقصد صديقه.. كاد يسأله عما فعله من أجل السلاح.. السلاح الذى استوى عنده أن يوجد الآن او لايوجد.. كاد يسأله عما حدث له .. لكنه إحس بعدم جدوى السؤال .. أراد أن يخبره بما حدث للزملاء .. لكنه وجد تمام صارما كأنه لا يريد أن يعرف شيئا .. أو كأنه يعرف كل شيء .. وفوجيء أن فى يد تمام كتابا ..

ـ ما هذا .. ؟

سأل محسن بانكسار ..

وهنا ابتسم تمام .. تألقت الدنيا فى عينى محسن .. ابتسم تمام فافتر ثغره الشاحب عن أسنان متألقة وسط الظلام .. وقال تمام :

ـ هذا كتاب .. اشتريته صباح اليوم ..

ورأى محسن صديقه يقرأ وهو الذى لم يكن يفعل ذلك كثيرا .. ورآه يتعب .. ورآه يبكى .. وأحس بالشفقة عليه .. لكن تمام قطع خيالاته وهو يقول :

ـ هيا بنا ..

ـ لا استطيع السير ..

ـ قم واستند على ..

ـ الدنيا ظلام ..

ـ الفجر لن يغيب طويلا .. ثم أن مشهدنا ونحن نحاول السير فى الظلام سيكون رائعا .. ـ وصمت تمام لحظة ثم استطرد ـ وسيكون أروع حين يبزغ الفجر ..

وقف تمام بعزم .. وامسك بذراع محسن ينهضه .. استند محسن على الأرض بكفه اليسرى وترك اليمنى لتمام يرفعه منها .. وقف محسن منحنيا كقوس ووقف تمام شامخا .. نظرا للسفينة ثم نظرا الى نفسيهما .. قال تمام :

ـ سوف نبنيها أروع ..

وصمت تمام لحظة ثم قال :

ـ انك لم تسألنى عن السلاح ..

ولم ينتظر اجابة محسن وقال :

ـ معى مسدس قديم كان أبى يحتفظ به منذ كان يتظاهر ضد الدولة والاستعمار معا ..

والتفتا تاركين مكانهما ..

وخطوا الخطوة الأولى ..

محسن يضع ذراعه فوق كتف تمام يعتمد بها عليه .. والفجر خلفهما يقاوم ثقل الليل الباهظ .. واخذا يسيران ..

كان محسن متهالكا .. ولكن تمام كان قويا .. أحاط صديقه من وسطه بذراعه اليمنى .. وباليسرى أمسك كتابه وفوق قلبه مسدس قديم يدفئه ..

العالم متسع فسيح الارجاء

« رغم أن ذا الوجـه المسالم تعس »
« والطبيب يغض عنه النظر فى كل مكان »
« رغم أن السرقـة تمـارس »
« والمصرى يحـارب اخـاه »
« رغم أن كل صاحب مدينة صار فى مملكة »
« واريقت أرواح المصريين »
« رغم أنى لا أجد من أتحدث اليه اليوم »
« اذ لا يوجـد أخيـار »
« رغم إن المشورة الحقة ضاعت »
« وصار كل واحد له عراف وجان »
« رغم انه قد ثقلت على التعاسة »
« واغلق على المصريين فى يد حاكم قاسى »
« رغم أن الشر يضرب فى الأرض »
« وقد جفت ميـاه البحر »
« وجـف النهـر »

« وصارت الصحراء دما »
« وتلف الزرع »
« ولم يعد الصياد يجد صيدا »
« والكل ينوح ويكتئب »
« ويسأل ماذا قضى رب الجنود على مصر »
« وأى روح شريرة أوقعت فيها الضلال »
« رغم ان الموت أمامى اليوم مثل شفاء مريض »
« ومثل رائحة زهور الليلك »
« ومثل الجلوس على شاطىء الخمر »
« وكصحو السماء »
« وكما يشتاق رجل لرؤية بيته »
« ورغم أنى أعرف أن الكل باطل وقبض ريح »
« وانه لا فائدة للانسان من كل تعبه »
« وان كل الأنهار تجرى الى البحر والبحر ليس بملآن »
« رغم أنى اغبط الموتى والذين لم يولدوا »
« فسأظل أصرخ فى البرية »
« فى جوف الأرض »
« فى عرض السماء »
« وان ظل مهزوما جسدى »
« مكدودا عقلى »
« حتى ان بقيت بعيدا »
« فالعالم متسع فسيح الارجاء »

« ومازالت النهاية بعيدة »
« الأرض تسير فى دورتها لم تنحرف »
« والليل لا يخلف النهار »
« وتلك الغيوم التى تحجب السماء »
« وتلك النجوم التى تهوى كالمطر »
« لا تنم عن موت الاله »
« انما هى الروح تشرق من جديد »
« فأمواه الحياة التى توجد فى السماء ستأتى »
« وأمواه الحياة التى توجد فى الأرض ستأتى »
« فهيا أوزوريس »
« ان الفيضان قادم »
« وسأضرب لك كل من فعل أى شىء ضدك »
« وسيمكنك أن تعيش وترفع نفسك »
« قل أن الاله سيستحوذ على ذاته »
« قل ان فى الموت ميلاد »
« ومن نزح سيعود »
« وستغلق أبواب الجبروت »
« قل لها ستلبسين ثوب عزك »
« وسيرتعب من يذكرك »
« فاستيقظى استيقظى .. »
« الأرض مازالت كريمة »

« تمام » بعد عام

نبوءات آخر الزمان

« أمواج الموت اكتنفتنى »
« سيول الهلاك أفزعتنى »
« جبال الهاوية أحاطت بى »
« شراك الموت اختطفتنى »
« فى ضيقى دعوت الرب »
« والى الهى صرخت »
« فسمع من قبته صوتى »
« وارتجت الأرض »
« وأعمدة السماء ارتعدت »

***

« كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يا كنعان يكون لكم »
« لقد تركهم الرب »

***

« لقد بسط يهوذا يده على أورشليم »
« وندم الرب على الشر »
« ويقول الآن لشعبى لا تنم »

***

« كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يا كنعان يكون لكم »
« لقد تركهم الرب »
« واختارك »
« حلت عليهم بك لعنته »

***

« سيكون فى ذلك اليوم أن يجمع الرب والاصرار »
« جميع المشتتين من أبناء كنعان »
« من أطراف الأرض الأربعة »
« وتنقض على أكتاف يهوذا »
« سفردم واشكيناز »
« وينقسم نهر الأردن جسورا سبعة »
« يعبر فوقها الثوار »
« تزداد المعابر للآلاف فوق الأجساد »
« يمر الشعب كما كان يمر يوم خروجه »

***

« كنعان »
« اجروا على رسومى »
« احفظوا وصاياى »
« نبوءاتى فوق رصاص »
« تقيمون آمنين فوق رصاص »
« سلام أورشليم فوق رصاص »

***

« ستزيلون الوحوش الضارية »
« لن يمر فى أرضكم سيف »
« ستطلبون أعداءكم يسقطون أمامكم »
« سيطرد الخمسة منكم المائة والألف »
« سيكثركم الرب جدا جدا »
« سيجعل مسكنه فيما بين رصاصكم »
« اسمعوا وصاياى وارفعوا السلاح معى »

***

« لا ييأس احد منكم على ما فات »
« ليكون نبيا يترنم بالاهازيج »
« عريانا خرجت من بطن أمى »
« وعريانا أعود الى هناك »
« فلنقبل الشر ونعرف كيف نأتى بالخير »

***

« مبارك أنت أيها الشعب المكدود »
« ستأخذ بقفا أعدائك تسحقهم كغبار الأرض »
« ستحول بكاءك الى رقص »
« سترنم روحك ولا تسكت »
« ستدعو ممالك الأرض ان تغنى »
« للشعب الراكب فوق الموت »
« طوبى لك يا فلسطين »
« من مثلك شعب منصور »
« الرب ترس عونك »

« والشعب سيف عظمتك »
« تخضع لك أعداؤك »
« وأنت تطأ مشارفهم »

***

« ها هو كنعان يسبل كل الأعداء »
« يفتح المدائن »
« تسقط بين يديه الغنائم »
« يفتح صدره للأعداء »
« يؤمنهم .. »
« لا جدوى للعنف »
« فقد عاد »

صايغ بعد الرحيل

***

« انتهت »

« ١٩٧٣ – ١٩٧٤ »

للمـؤلف

الروايــات :

١ ــ **ليلة العشق والدم** ــ مطبوعات القاهرة ــ ١٩٨٢ .

٢ ــ **المســافات** ــ دار المستقبل العربى ــ ١٩٨٣ .

٣ ــ **الصياد واليمام** ــ دار المستقبل العربى ــ ١٩٨٥ . طبعة أولى .

وزارة الثقافـة ــ بغـداد ١٩٨٧

طبعة ثانية .

٤ ــ **بيت الياسمين** ــ دار الفكر ــ ١٩٨٦ .

٥ ــ **مذكرات عبد أمريكى** ــ ترجمــة ــ مؤسسة الأبحاث بيروت .

القصص القصيرة :

١ ــ **مشاهد صغيرة حول سور كبير** ــ وزارة الثقافة ــ سوريا ١٩٨٢ .

٢ ــ **الشجرة والعصافير** ــ مختارات فصول ــ ١٩٨٦ .

تحت الطبـع :

البلدة الأخرى ــ روايــة .

الهيئة المصرية العامة للكتاب

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

● بين يديك الآن الطبعة الثانية من هذه الرواية التى صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٧٩. لقد كتبت هذه الرواية عام ١٩٧٤، بعد حرب أكتوبر المجيدة مباشرة. وكأنما كان الكاتب ينتظر هذا الحدث الرائع ليقدم هذه الرواية التى هى بمثابة ذاكرة للنسيان. إنها رواية/شهادة لواحد من أبناء هذا الجيل الذى رأى الحلم الجميل يتسرب من بين يديه فى الوقت الذى راح يخطو الخطوة الأولى نحو المستقبل. وهى أيضا رواية تنزع إلى التسجيل فى تجربة فريدة للكاتب فتستعين على وقائعها بالصحف والمذكرات السياسية والكتب الدينية والمقدسة وكتابات الفراعنة، كولاج، متماسك خلفه لغة سريعة الإيقاع كتواتر الحدث نفسه. إنها رواية الأيام الست التى ظننا أنها جاءت مفاجأة بينما كانت وثيقة الصلة بما قبلها وما بعدها.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٨٠ قرشا